رفاهية الألم !

د. سالم إبراهيم سالم

ليليت للنشر والتوزيع

سالم إبراهيم سالم
رفاهية الألم
رقم الايداع / ١٨٦٨ / ٢٠١٤
الترقيم الدولى / ا - ٥١ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨
غلاف / محمد أنور وحيد
حقوق الطبع محفوظة لدى الناشر
ليليت للنشر والتوزيع
الإشراف العام / إيمان سعيد

هيئة تحرير ومراجعة
د/ سالم ابراهيم سالم
أ / رشا زتيرق
أ/ محمود السيد
المراسلات : ٦٠ ش سكينة بنت الحسين
كفر عبده - الإسكندرية
ت : ٠١٢٢٤٧٢٣٢٧
: ٠١١٤٤٥٩٥٧٥٧
Dar.lilitte@gmail.com
lilettepublishing@gmail.com
www.lilithpublishinghouse.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤن الفنية
دار الوثائق القومية
سالم إبراهيم سالم
رفاهية الألم
دار ليليت للنشر والتوزيع ،٢٠١٤ ط١
ص ،سم ١٣x٢٠
تدمك /١-٥١-٥٣١١- ٩٧٧ - ٩٧٨
رقم الايداع / ١٨٦٨/ ٢٠١٤

إهداء ..

لإيمان سعيد .. كل الحب والخير

قل لي مقدار الحب في حياتك أقل لك من أنت.

ابتسم .. لم يكن أمامنا سوى القيام بما قمنا به.

هو ذلك الطموح البريء في استشراف حياة مطمئنة .. الحب.

أحيانًا لا تنجح عقولنا في فهم العالم لكن أبدًا ودومًا قلوبنا تنجح.

التاريخ هو فن إخفاء الحقائق.

النهاية ليست بالضرورة آخر ما نقوم به.

الحب نقيض الكذب مثلما هي الحياة نقيض التاريخ.

هناك أشخاص يمكن اختزال حياتهم في رواية، موقف أو في مجرد.. ستاتس .. لكن هناك من لا نستطيع أن نختزلهم أبدًا .. إنهم بمثابة كتاب مفتوح لجعل الحياة ممكنة.

والحب لا يقبل فكرة «الحيز» .. إنه أبهى مستعمر وأكثر المحتلين طموحًا.

في التخلي تكمن ذروة التملك وروعة الهيمنة.

الله لا يعرض نفسه .. والتاريخ ليس مراوغة أو رواية ركيكة لمؤلف مريض .. ثمة حكمة؛ حكمة حقيقية نبحث عنها وإلا ما قيمة كل هذا الجهد الفلسفي والنفسي طيلة تاريخ العقل؟! أليس الله أعمق وأجمل مشكلة فلسفية؟! إنك حين تتابع كلمات هيتشنز لا تملك سوى أن تصدق هذا الرجل .. لكن ما الحل الذي طرحه؟ .. الحب! .. السلام!

كم مرة على رجل جيد مثل هيتشنز .. كم مرة عليه أن يقرأ إنجيل «متى»؟ .. فقط تطويبات السيد المسيح ليعرف ما هو الحب الذي ينشده، السلام الذي يفتقده العالم .. القيم يا سيدي لا تُخطيء .. الحكمة لا تُخطيء .. وإنما نحن مَن نحمل جرثومة الخطأ أو ما يمكن توصيفه بـ»جرثومة» .. فالخطأ عند الأنبياء بداية .. وما الأنبياء سوى حالة من حالات نقد الخطأ .. عمومًا الله لا يضع النهايات مفتوحة نحن فقط من نصر على عدم قراءة السطور الأخيرة.

الشيء الغريب هو أن دموعنا هي آخر حائط صد لنا .. أحيانًا أشعر أننا رغم كل هذا الغضب والكراهية والقتل عبر التاريخ .. أشعر أننا أرق من الفراشات

الطريق لا يحتاج خطوة ليبدأ وإنما لينتهي.

الخيال وطن.

كيف يمكننا تغير عالم نعيش خارجه؟!

كل حاجة، كل شخص، كل يوم لنا في الدنيا هو احتمال.

نضال أمام لوحة، كل ما لدينا علب ألوان وفرشات ..

حتى فنجان القهوة بجانبنا .. كل ما لدينا سيصير «ذكريات لوحة».

موتنا وحده لا يبقى احتمالاً .. مسيرة التفنيش وكلمة (End) .. ووداعًا لهذا الذي ظن أنه يقف على مسافة كافية من حُلمه تسمح له بادخار أوهام لائقة.

تُرى .. مَن نحن؟

ما احتمالات الإنسان فينا؟

أكثرُنا يعيش وغدًا .. مؤقتًا، يعيش لصًّا .. مؤقتًا، يعيش كذابًا .. مؤقتًا،.. إنه كائن مؤقتٌ، يومًا ما يمتلك كل شيء، يمتلك رائحته، ويموت.

وبعضنا يؤمن بكل ذرة فيه وبكل وجدانه بأن عالمنا يحتاج لأكثر من مسيح ..

طوبى للذين لا يملكون غير غربتهم في هذا العالم، غير وحدتهم.. طعامهم كتب وحديثهم صمت، طوبى للمحاربين التعساء الذين وجدوا أنفسهم في قلب معركة مؤبدة، لا يملكون غير أن يتلقوا السهام من الجانبين .. طوبى للذين جفَّت دموعهم، وما جفَّت أرواحهم.

س.إ

مدينة نصر ٧ـ٢٠١٣

مقدمة

الفلاسفة عادة ما ينشدون لا امتلاك العالم الحقيقي وإنما امتلاك حقيقة العالم .. لذلك يعد فيثاغورث أول مَنْ تحدث بلغة فلسفية أول مَنْ اقترب من روح العالم وألقى نظرة لكن ماذا وجد فيثاغورث ؟

وجد أن جُلَّ ما يمكننا اقتناصه محبة .. محبة الحكمة لا ارتياد الحكمة ذاتها وامتلاكها .. والدين تحدث عن ما هو أقرب للتقوى .. مجرد "قرب"، لاكشف وامتلاك.

وربما يُعَد طاليس أول مَن تفلسف .. لكن القدرة على التفلسف قديمة لأن القدرة على التساؤل قديمة، ولأن القدرة على الاندهاش قديمة

لكن مادام الإنسان كائنًا قادرًا على أن يفلسف حياته، أن يقحم نفسه في مشكلة الوجود ..

مادام ثمة كائن في حاجة دائمة لأن يستشعر مسئوليته تجاه العالم والآخرين، مادام الإنسان يريد ويدرِّب إرادته بلا يأس، فهو لن يقبل أبدًا ارتياد حياته كفرصة ضائعة، كهبة، لذلك .. نجد الأنبياء مثلاً رُغم أن موضوع الدين هو أُخروي في الصميم نجد الأنبياء أكثر مَنْ آمن بقيمة الحياة؛ الحياة كأهم أعمال الله، الحياة كمهمة مخيفة إلا أنها لا تقاوم ..

فالأنبياء في حديثهم عن الآخرة إنما كشفوا لنا عن ولعنا بأكثر من حياة .. مَلَكة الطمع البنَّاء.

لذلك يبقى السؤال المشترك بيننا جميعًا سؤال ما بعد طاليس، لا "ما أصل العالم»

وإنما "كيف نجعل من عالمنا عالمًا أصيلاً؟".

كيف نجعل من حياتنا اليومية نشاطًا فلسفيًّا؟

كيف نفلسف ذواتنا ونفلسف احتياجاتنا .. إن أكثر ما اختبرناه في عالمنا .. الحروب.

وعندما نشاهد أفلامنا "هوليود" وسياسات أمريكا الخارجية نعرف كيف نفترض أن الموت والدمار حلاً نبيلاً العالم؛ عالمنا، الآن يقف بشيء من الكبرياء معاديًا للفلسفة، فالعالم حين يستند للعلم وحده فهو يتجاهل طبيعتنا "حزمة العواطف التي تجتاحنا "؛ فالعلم لا يترجم دموعنا ولن يعبأ بالفردانية، والوجود الأسمى، والبراءة، والحب، والأخوة والتعاطف لأنه يستهدف نجاحه فحسب لا كما حضَّنا أينشتين على ابتغاء لا مجرد نجاح وإنما قيمة.

حياتنا إذن ساحة لهذا الاصطراع .. بين أن نكتفي بنجاحات عادية وبأن نكون قيمة .. ففي عالمنا مَن يوفون بعفوية أو عن عَمد للكراهية والموت ومَن هم مكرسون للحياة .. لأن يغنوا للأبد، لاشتهاء لا ينتهي للحكمة والتقوى.

والإنسان طيب إلا أنه بطريقة ما خائن، يمكن أن نعتبره خائنًا تاريخيًّا أو كائنًا على وعي كامل بخيانته.

يقول إريك فروم إن كل الأديان العظيمة يمكن تلخيصها في عبارة واحدة «أن هدف الإنسان هو التغلب على نرجسيته»، لكن نحن لا نريد ولا نرغب في أن نتغلب على نرجسيتنا، لذلك مثلاً نحن نرفض كل الأديان أو نخضعها للنقد والسخرية الجادة لأنها تفضح نرجسيتنا فنفاجَأ بخطة غريبة وبلا أفق للرب حين نقرأ «سيرة الله» لمايلز،خيبة أمل مريرة برواية «قايين»، أخطاء كونية في «وهم الإله» .. لكن هل الأديان العظيمة وحدها هي ما يجب أن نتحدث عنه بدم بارد؟

هل الأديان وحدها هي التي علَّقت لنا المشانق؟

لا.

تاريخنا السياسي وردود أفعالنا تجاه ثوراتنا الإجتماعية، سلوكياتنا تجاه أنفسنا وتجاه الآخرين، كل ذلك يظهرنا على أننا نخوض حياتنا كوليمة، أننا في حلبة، أننا لا نستطيع أبدًا أن نتغلب على نرجسيتنا ولا نأمل في ذلك.

التاريخ بوجه عام يوجه لطمة مزعجة لسبب بسيط هو أننا كتبناه بأيدينا، إنه اعترافاتنا، هل الإنسان منا سيء لهذه الدرجة؟ عنيف قذر أناني عبد وجشع لا يملك عبر كل تاريخه غير أن يصطاد نفسه يطارد نفسه؟

ربما، لكن على الجانب الآخر يظن البعض وأنا منهم أن الانسان يعيش بلا رغبة

منه تاريخًا موجزًا للألم، إنه يحاول أن يجعل للحياة معنى وللعالم معنى، لكن لا أحد يقف بجواره.

إنه الفيلسوف الوحيد القادر على تأمل ما يقوم به، وهو يتأمل حياته ويدونها لا لأنه نرجسي لكن لأنه يستشعر مسئوليته أمام العالم، فالإنسان خيّر يُسخر كل ملكاته في سبيل إخضاع الفساد وسحقه؛ فخطة الإنسان منذ مجيئه هو أن يجعل العالم مبتسمًا حتى لو استنفد جُلَّ حياته في دموع وتخبط.

كتبت هذا الكتاب بكتيبة١ دفاع وكنت مكتئبًا لحد ما؛ فبطريقة ما تجد نفسك عبدًا أو كل ما يجب عليك القيام به هو الطاعة العمياء لمجموعة مرضى.

وبإحدى ليالي الشتاء وجدتني أسأل .. تُرى فيمَ يفكر الغريق؟

بوسع المرء أن يسند لنفسه البطولة، دور اليد الممتدة التي تتلقف الأرواح المنفلتة يعيش أنشودة المنقذ والمسعف، لكن ماذا لو احتاج هو يومًا ليد تأويه أو تمتد لطموحاته الأقرب للانسحاق؟

كل يوم في ميعاد ما أطفىء لمبة الغرفة وأغمض عيني ولا ينتابني عبر لحظات الوعي الأخيرة سوى حاجتي ليد ممتدة .. وكأن النوم ملاحة تنطوي على مقدرات الغرق والخسارة.

كل يوم يمضي أخسره أو أخسر فيه أو أعود بلا شيء .. أتكبد طموحاتي وتستبد بي وحدة لا رحمة فيها.

أي معركة علينا أن نخوض غمارها كي نكون راضين عن أنفسنا؟!

أملك البَوح عن تراتبية أقدارنا وأفضفض لنفسي عن نفسي .. مَن أنا ومَن هو هذا الذي أود لو كنته؟

ورغم تخفي نفسي من نفسي إلا أنني أدبر في انسحاب الوعي وعيًا وفي الشعور الأليم بالغرق أيادٍ ممتدة أتهيؤها وأراودها وأنعم بنشوى الملاَّح الذي يقصد هجر العالم ليربح ذاته.

ولا يملك المرء حقًّا إلا أن يدفع مقابل أحلامه وأوهامه.

أقرأ..

كل يوم وبعدما ينالني التعب أجد نفسي سعيدًا حين أستيقظ فجأة.

لا أعرف ولا أفهم استباحة الأرق لعيوننا المغمضة إلا أنني أتناول البريد بيد متحفزة لأنهض وأقرأ كيف خاض الميتون لحظاتهم الأخيرة ..كيف دفعوا مقابل أحلامهم وكيف كان الغرق مدهشًا ولا أيادي مدت ولا برقية واحدة سُرّبت إليهم تخبرهم عما كان يجب عليهم القيام به.

ما أصعب أن تعيش حكايتك بلا بطولة وما أسخف ألا تلتئم الجراح في السطور الأخيرة! ويالمرارة التي لن تغيب حين نمسي أو نعي أننا أمسينا قلب بروميثيوس النازف؛ نؤكل في وداعة أو بلا أيادٍ مدرَّبة على تضميد أحلامنا أو إنعاش أبجديتنا.

أقرأ .. أو أغرق .. وأقول .. لا يملك الغريق أن يصطحب حتى أحلامه، تبقى عيونه مفتوحة وقلبه منكسر .. يبقى آملاً للنهاية أن تعاوده كما عودته الأيام استباحة الأرق، لأن يستيقظ فجأة ولأن يجد بريدًا جديدًا جاء به الله .. لأن يجلس مع الله على طاولة واحدة ويسأله .. ماذا لو كنت لي يدًا ممتدة .. يدًا وحيدة ممتدة لي؟!

هنا يعرف الغريق ما يفكر فيه، أين عليه أن ينتظر كي يجد نفسه أو يربحها للأبد كيف يصافح الله على طاولة، ومتى .. ولمَ .. وكيف.

يجد أن ما يعوزه بديهيات .. طفولة .. ما يعوزه طفولة .. حاجة للثأر من إحجامنا عن التساؤل والتساؤل، حاجة للاعتراض .. حاجة لأن نقول هناك حكايات لاتنتهي .. حكايات مدربة على السباحة.

كل محبتي للذين ساهموا في خروج هذا الكتاب وعلى رأسهم الأخ الحبيب محمد سالم والأخ العبقري أحمد سالم .. لا أعرف كيف يمكنني رد ما قدماه لي معنويًا وماديًّا .. لهم كل الحب.

قبل أي وصية ..

لا تكذب

يقول النبي في حديث ينتمي للفلسفة أكثر من انتمائه للعقيدة ربما نجد مسلمًا يزني، يقتل، يسرق لكن لا يكذب المسلم.

وصيغة الحديث صيغة سقراطية جاء في سؤال وإجابة.

ورغم أن دور النبي يُعَد دورًا أخلاقيًا حين يستخدم أسلوب الاستثناء الدال على القصر «وإنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق» إلا أن فقهاء التاريخ أبعدوا أو همَّشوا هذا الدور الأساسي.

ولو سلمنا بقيمة هذا الدور الأخلاقي أو فعَّلناه لوجدنا أن الدين الإسلامي أقرب للفلسفة منه من بنية الدين التي تعتمد على فكرة الغيب أو الطقوس.

هذه الفكرة اقترب منها سيد قطب حين التمس لنا كَم كان الدين واقعيًا حتى في حديثه عن أعمق فكرة غيبية «الله»، فتم الاستناد إلى أثر الله وفعله للبرهنة على وجوده، في «لصوص الله» يستأنف عبدالرازق الجبران هذه الرؤية بإشارة قوية إلى وجوب اكتشاف وجودية الدين أو الوجودية في الدين وإلا كان لعنة لا خلاصًا فإن لم يكن الدين إنسانيًا يرأف بدموع الأطفال .. إن لم يكن مدافعًا في المقام الأول عن العائلة البشرية لكان الله متهمًا.

المسلم عند النبي محمد لا يكذب؛ أي هو وجوده الحقيقي الذي يقف بصرامة نقيضًا للزيف وللهلوسة العبثية والرغبة الدنسة في استلاب الإنسان حقيقته وأروع ما يملكه .. التاريخ.

لماذا أصر المؤرخ إذًا ـ الذي أُسند إليه كتابة البشر في أحلامهم ونضالهم ودقائق معاشهم ـ على الكذب؟

ولماذا نجد مثلاً أن الواحد منا عبر أكثر من «سبعة آلاف سنة مدوَّنة» أروع وأدق كاذب تاريخي ..

قراءة التاريخ سهلة، جميعنا يدَّعيها، لكن قراءة القلب أصعب مهامنا على هذه الأرض.

من هنا نجد العمق النفسي وفهم المسئولية التاريخية في حديث «لا تكذب» ..

لا يشبه الأمر إخفاء الأدلة وغلق الملفات .. إن ملف مَن أنت؟ .. وما الخير وما الفضيلة؟ ملفات لم تغلق بَعد .. وإنما عن أبجدية القراءة .. كيف علينا أن نقرأ أنفسنا دون كذب، ومن ثَمَّ كيف نعيد صياغة أنفسنا لنجعل العالم أفضل ما يكون ..

المسلم لا يكذب .. ربما هي أروع وأصعب وصية جاء بها الإسلام رُغم أن أكثر المتحدثين باسمه الآن كذبة نبلاء.

لا أعرف لم كل هذا الكذب عبر تاريخنا البشري رغم أن الجماعة البشرية لم تكن

يومًا في حاجة للكذب ؟!

أظن أن المخرج من هذا الفخ التاريخي هو أنه علينا أن نسلم أنه دومًا ليست المشكلة في تاريخ النفس البشرية في الوقائع ذاتها وإنما في آلية استيعاب هذه الوقائع؛ بمعنى ليست المشكلة في التاريخ وإنما في آلية استيعابه، أي لا تكمن العثرة الكؤود التي تؤرق فلاسفتنا بوجه عام في كتابة تاريخ الإنسان وإنما في قراءته.

وإذا تقمصنا دور الفيلسوف في قراءة القرآن مثلاً ربما نستمد من الكلمة الأولى «اِقرأ» تعريفًا اختارته السماء لنا كجماعة بشرية مؤهَّلة للحوار مع الله أو حسب التعبير الكنسي «الشراكة» مع الله .. التعريف الذي يترجم هذا النص أو هذه الكلمة بالتحديد لأبجدية فلسفية هو «الإنسان حيوان قاريء» ..

فالقراءة حوار أو سَفَر في ذهن الوجود ووضع لنا اللغويون مرادفة لذيذة للقراءة هي «المطالعة»، بمعنى أنك تقف لمشاهدة شيء ما، وكأن القراءة تنتمي لحاسة الرؤية .. إننا ننفذ بوجداننا لحالة الحياة والوجود عبر القراءة أي أنها تأبى فكرة الضمور القبلي للذهن واحتماء الواحد بذاته وترحب بعالمية آلامنا ومشكلاتنا وتضع الطبيعة والاستياء الوجودي كله معنا في قالب واحد .. هنا لايقف الإنسان مع العالم أو فكرة وجوده موقفًا تشاؤميًّا بل موقفًا تضامنيًّا؛ فالقراءة تسمح لنا لا باكتشاف الأشياء أو عين الأشياء والوجود وإنما اكتشاف الإنسان، عين وجوده.

ربما أجد هنا جملة تختزل ما أود أن أرمي إليه .. «الإنسان يكذب لأنه لا يقرأ» فالله لم يرسل لنا أنبياء وإنما كان النبي وسيطًا وحاملاً لما هو أعمق من شخصه .. كتاب.

والكتاب الذي أرسله الله لنا يحتاج أولاً وأبدًا من يجيد القراءة .. فالكلمة هي الرفاهية الوحيدة لنا في هذا الألم الوجودي والعناد التاريخي الذي سئمناه دون جدوى.

وغالبًا ما نجد أن مَن كتب التاريخ كان إما جاهلاً وإما كان في صحبة جاهلة .. ونظرة سريعة نجد التاريخ يغلب عليه المذاق السياسي أو الحربي .. نجده تاريخ جنرالات وكأن التاريخ يميل عادةً لمن لا يقرأ أو لا يفكر ..

في هذا الكتاب أود أن أقول إن الإنسان يوتوبيا، وهذا الفرض بدوره يأخذنا لسؤال محرج .. كم كانت خسارتنا فادحة!

كيف سنواجه هذا السخف التاريخي الذي ابتدعناه، وكم من الخجل سيستبيح وجداننا تجاه ما اقترفناه من أخطاء كونية تسفك فينا أول ما تسفك آدميتنا؟

إذن اللغة التي علينا أن نقرأ بها هي كيف يُمكن أن يعيش الواحد منا حاملاً مغفرة لا محدودة لنفسه وسخافة تاريخه ؛ لغة المحبة التي تحتكر القلب وتنصت به وتحاور فيه، لم يكن الله حسب أعمق الفلسفات الحديثة أكبر كذبة أو بلغة سلبية ليس علينا أن نهتم بكون الله أضخم أكاذيبنا رواجًا أو لا .. ما يهم وما يمكن أن نجتمع جميعنا عليه هو أن الإنسان هو المصمم الأعظم والأدهى لأي كذبة .. الإنسان كاذب لا يستحي من أخطائه الفجة .. وحين أمات الواحد منا الحب في حياته أحيا يوتوبياه المزيفة النافقة .. الحب نقيض الكذب مثلما هي الحياة نقيض التاريخ.

وحين تخلى الإنسان عن قراءة ماضيه سقط في بئر الهلوسة الفكرية فالأنبياء

خارج التاريخ وكتاب «الأمير» رائعة يؤرخ بها تاريخ الإنسان السياسي، والإنسان همجي لم يعرف الحضارة والقيم سوى في حاضرنا، والله لم يكن جادًّا في إسعاد البشر.

القراءة إذن طوق نجاة من كل هذه الأكاذيب في عالم صار فيه الفساد فلسفة والدين سلطة والفرد ريبوت تضخ فيه وسائل الإعلام حيوانيته كيوتوبيا وخلاص.. ولولا كذب الإنسان ما احتاج لكل هذه الحروب والدماء والتردي والعبث.

في «انقلاب المعبد .. الحل الوجودي للدين» يتساءل عبدالرازق الجبران في شيء من الدهشة :

«بعد مجيء ألف نبي ونبي وقديس وفيلسوف وشاعر وعاشق، وموت ألف ثائر وثائر، يعود العالم تيهًا»

ربما لأنهم جميعًا تم اغتيالهم بمنطق أتباعهم ومريديهم، تمت قراءتهم بلغة فاسدة وقلوب هواء، ومراد وهبة يقول في «ملّاك الحقيقة المطلقة»: بعدما تمت إدانة سقراط قام أفلاطون بنقل الفلسفة من الأسواق إلى الأكاديمية واشترط على راغبي التفلسف دراسة الهندسة أولاً وهو بذلك ودون أن يشعر بتر الفلسفة وجعلها حكرًا على النخبة.

هنا يندهش مراد وهبة من موت الفلسفة الذي أقدم عليه أفلاطون ولم ينشغل بروح أفلاطون التي سربت لنا فكرة مخيفة وهي موت الناس في نظر الفيلسوف .. هذه التشاؤمية عند الجبران وعند أفلاطون وعند الفلسفة الحديثة عامةً جاءت

نتيجة الفراغ المخيف الذي خلَّفه الإنسان حين صار أُميًّا وأقدم مثلاً وبحسب القانون على قتل سقراط قديمًا وقتل التاريخ حديثًا ..

مات الإنسان حين كذب في تاريخه وفي آماله وفي طموحاته .. ما السعادة إذن من وراء وَهْم وما الحكمة من وراء التخلي عن قيمة الحب والإخاء والانتباه للآخرين في معاشهم عامةً؟! ما الحكمة من أن نعيش في أنانية وكراهية .. ما الحكمة من وراء الكذب؟

لا حكمة .. وإنما سخافة لا أكثر.

لا يعمل الواحد منا على أن يكون مزيفًا، ورحلة المرء عادةً محاولة مباشرة لبطولة كاملة .. لا يعمل على أن يصبح قبيحًا حتى أولئك الذين يتسمون بالكراهية لا يعمل أي واحد على أن يصير بمرور الوقت مستنقع رغم أننا نقابل هذا الرجل المستنقع كل يوم في كل مكان لكن كلنا وفي فترة قد تطول أو تقصر يعرف جيدًا أنه يزيف روحه، يعرف جيدًا أنه ليس بطلاً، يعرف «لاأخلاقيته».

كلنا في فترات ما نكون هذا الرجل المستنقع ..

ولو جلسنا أمام ورقة وقلم لنعترف سنرى هذا الوحل الذي نخطو فيه، سنرى وجه «شلبي» وهو يرعب البشر.

أنظر لكل الحروب، المجاعات، الإبادة، بث الكراهية، الإقصاء، التعنت ويُتم العالم .. إننا هؤلاء .. أنت لست استثناءً إذا لم تتحرك لإنهاء هذه الملهاة وهذا العذاب.

الوصية الأولى

أنت حر

خُلق الواحد منا حرًا؛ لكن ليست الحرية صفة بيولوجية أو افتعال وجودي أو كسبًا فلسفيًا وإنما ميل إلى حياة عميقة، فالحرية تقف هناك قبل أن تجف الألوان وتكتمل اللوحة، إنها تظهر في هذا الطقس الفني الذي يرتاده الفنان .. إنها هذه الحالة القلقة الماردة التي تقف وراء صنعه لقطعة حياته الفنية.

إنها قابعة في حركة يده، في سطوره الأخيرة، في إرادته اللانهائية لإيجاد خلق لانهائي.

بذلك لا نكون أحرارًا بشرط ما أو بنضال أو بكشف (أعني اكتشاف إمكانية أن نكون أحرارًا) وإنما نكون أحرارًا بالضرورة .. أقصد أن قدرنا هو أن نكون أحرارًا.

كثير منا يكرِّس حياته دفاعًا عن الملل .. يصب نفسه في قالب طبيعي فيمر على الدنيا كادة في حاجة للكساء، في حاجة للطعام، في حاجة للمجد، في حاجة للجنس.

تأمُّل حياتنا على هذا النحو يدفعنا للخجل من الحياة.

إننا نمارس حياتنا عندها بقطيعة أبدية مع الحياة فنعيش حياتنا ضد حياتنا.

تتحول حياتنا الثرية عندها لنوع من أنواع التكرار والرتابة، لذلك نجد في هذه الأحيان أننا نبحث عن تضييع وقتنا.

قتل حياتنا لأننا فعلاً بمعنى مباشر لا نحمل ولا نملك غير أن نحمل سوى موهبة الموت .. إننا حتى نستمر في هذا الغياب لأننا لا نشعر بموتنا أو لا نملك أن «نراقب» موتنا الاختياري، هذا لأننا نيام لا نستريح لفكرة الجهاد العفوي عن الحقيقة، لا نأمَن لقدراتنا؛ فالحياة في طيات أرواحنا هي معاناة أو عبء وجودي أو رفاهية مبتذلة.

الحرية تسمح لنا باقتناص حياة عميقة كصنَّاع مدرَّبين للحياة .. ولا نصادف في النهاية ـ إن كان ثمة نهاية ـ سوى حياة مديدة تمتص خلودًا ما خاصًّا بين طياتها.

لكن هذا لا ينفي أن ثمة نبوءة بيولوجية غُرست بجنباتنا تعلن أننا خُلقنا كي نعيش أحرارًا، ولا ينفي أننا على الدوام نجد أو نحاول أن نجد أنفسنا أحرارًا ولا ينفي أن ثمَّ نضالاً كامنًا في حركتنا نحو فهم حريتنا.

الحرية إذن ضرورة وابتكار وميراث وأداة .. إنها تستوعب، أو عليها أن تستوعب كل لحظة من لحظاتنا الذهنية إذ أننا لا نستطيع أن نخلص للحظاتنا الذهنية الخاصة التأمُّل العارف سوى بأداة الحرية وسوى بابتكار الحرية، وسوى من وازع حر كوننا استثناءًا وصخبًا واعتراضًا ثريًّا في هذا الوجود.

السؤال الآن؛ ما تاريخ قلبك، إلى أي مدى أنت حر؟

إلى أي مدى تعمل على أن تكون حرًّا؟

متى تصل سفنك وعند أي شاطئ ترسو؟

يتحدث المسيح عن الحياة .. أنا هو الحياة .. عن الماء الحي وعن الحياة البديلة، القرآن يلفت انتباهنا لأكثر من حياة لكن ..

على أي درجات السلم نقف ..

المسألة يا أخي مسألة قلب، إننا لعشرين قرن نعيش بالقرب من العالم، بالقرب من قلوبنا، بالقرب من حرياتنا .. متى ندخل إلينا ونتخذ مقعدًا؟

الآن نعيش في حيز جيد من نظريات الوجود .. ندرس طبوغرافيا أرواحنا على مهل ونفتح الأبواب عن آخرها ونلقي نظرة طويلة ..

إننا في هذا العالم الذي أجهضناه لمئات السنين وأبكانا وأباد أجدادنا، إننا في هذا الماضي العالمي لا نملك سوى أن نزدهر.

كل ما هنالك هو هذا التساؤل:

أين علينا أن نضع لقاحات قلوبنا من جديد؟

لا تثمر اللقاحات إذا ما أودعت المقابر، وليس مستقبلنا في حب الموت وتدمير قلوبنا.

مستقبلنا يكمن في إيمان عميق بالحرية، حرية البَوح واختبار الحقيقة، إيمان بقيمة الفردانية المغموسة فينا «أن أكون»، بطموح لا ينتهي كطموح المطر لا

يترك لنا سوى ابتعاث الحياة، بنضال يعمل فينا ليصلح ما تبقى لنا من قلوبنا المجربة.

بحُب؛ ففي النهاية، حين نعرف أن بابًا بعينه هو كل ما تبقى، وأننا في خضم لحظة عبوره، حين نتبادل الكلمات القوية والرقيقة في آنٍ مع زائرنا الأخير، لا يمكن ولا نستطيع سوى أن نترك تساؤلاً : ما مقدار الحب الذي قدمناه للعالم؟

فعالمنا رغم كل شيء، رغم ما يحدث كل لحظة من ظلم وقهر وكراهية، رغم تعاسة الفرد فينا حين يخلو لنفسه .. العالم هو ثمرة ما نكونه وربما يجيء اليوم الذي نراه أفضل عما وجدناه عليه

الحرية الأولى لنا إذن هي أن نحب .. وأصعب شيء في الحياة هو أن تنجح في مصافحة الجميع .. احتاج العالم ألفي سنة كي يتعلم كيف عليه أن يدير الخد الأيسر .. لأن يطرح على كينونته هذا التساؤل: ماذا لو توقف البشر عن قتل أنفسهم؟

لآلاف السنين دافع الإنسان عن وطنه، حريته وطموحه إلا أنه لم يتوقف مرة واحدة ليسأل .. أين تقع أرض المعركة الجديرة بإنهاء كل هذا العذاب ؟ .. هل هي بالخارج أم فينا .. هل علينا أن نجري ملاحقة لهدف خارجي أم أن نتعمد تصفية ذاتية؛ قتل «الأنا»؟

يقول الله لليهود «اقتلوا أنفسكم» .. والمتأمل لحياة اليهود بالكتب القديمة يكتشف في كل سفر أن ألم الله سببه الوحيد هو أداء أبنائه وأن معاناة الله نشأت من دراما

حركة العداء الغير مفهوم في داخل الشعب .. العداء الذي لا ينتبه إليه الأبناء ولا يملكون إلا أن يقفوا في حيرة أمام نبوءة أشعياء، فمن يصدق أن الأمر ينتهي بهذه الصورة .. بقتل الله.

هذه هي دراما أول شعب أراد الله لهم أن يكونوا أحرارًا .. فحسب كاتب التاريخ اليهودي لم تنجح الحضارات القديمة في أن تمنح الإنسان حريته .. وكانت آخر الحضارات القديمة «الرومانية» تكرس لمعنى الفوضى في فهم «الحرية» فكان الإمبراطور يعبد وكان «العبد» لا وطن له .. والمفارقة الغريبة أن «الدين» القائم على مفهوم العبودية في العالم القديم هو الفكر الوحيد الذي وضع تصورًا لتحرر الإنسان من سفه الوثنية وتمجيد الأباطرة، فما عادت الحياة حسب كتابات اليهود صخرة أو نفق أو لعنة وإنما ثمة خطة خلاقة انتهت بأن الإنسان كان مقصودًا ومختلفًا عن الطبيعة .. هنا وكأن الإنسان يعود لنفسه حين يفهم معنًى مختلفًا للأبدية وحين يأنس لفكرة العناية التي شغلت حيزًا بأذهان الفلاسفة المسيحيين فيما بعد.

وطيلة التاريخ يحاول الإنسان أن يجرب هذه الحرية، هذه السخرية أو هذا العذاب الوجودي فيرسم لنفسه كيف يجب أن تكون حياته، كيف يتناول زهوره كاملة ويقدمها لك وللعالم الذي أحبه .. وفي كتابته لتاريخه ما بين إخفاق وفوز طبع ضحكة مرة ويأس مرة، وضع يده في يد منفاه مرة ووضع قلبه بيد الله مرة؛ هذا لأنه فطن لمعنى أن يكون حرًا .. ولأنه استيقن أن عليه وعليه وحده صناعة الحياة.

الوصية الثانية

لا تخف

مم يخاف البشر؟

ما الذي نهرب منه؟

الترس .. الإنسان اكتشف أن كل شيء يدور، يسميها العلماء الحتمية العلمية، إنها تستحضر لأذهاننا تعبيرًا فلسفيًا قديمًا «الجبرية» ..

كل شيء يؤدي وظيفته بشيء من الرتابة والتكرار ..

حسنًا .. هذا الوجود جميل لكنه ممل، إننا حتى لا نعرف لمَ نراه جميلاً

ما الجميل في شمس تشرق كل يوم ، في أرض تدور حول نفسها، في صباح كل يوم ونشرات الأخبار والخضوع والتفاني منا لزمن غير مهذب وغير جاد ؟!

فقط ممل.. لكن

لماذا نشعر صراحة أن الأمر دومًا خلاف ما يبدو لنا، أن خطة الوجود تضمر ما يجعلها الأكثر (إلهامًا وشغفًا)

دعنا نبدأ .. دعنا نلتفت لرفاهية التشاؤم في الفلسفة الحديثة .. حسب البعض أننا كثيرًا ما نظن أننا نبكي حين نولد، نبكي لميلادنا لكن فيما بعد تزحف تحت

جلودنا جرثومة الحقيقة .. إنا وُلدنا لنبكي، فالعالم كما يقول الوجوديون نفق مظلم، لقد دُفع بنا يا سادة كما يُدفع بالمظليين لكننا لم نتلق تدريبًا.

والوجوديون قالوا لنا إن حياتنا حتمًا تنتهي بكآبة وموت .. لماذا الوجوديون ؟

لأنهم وحدهم كانوا أكثر شغفًا في البحث عن حرياتنا، إنهم حاولوا جاهدين أن ينقبوا عن حرياتنا، ألوهياتنا، وجودنا ..

حفروا عن طموحاتنا ورغباتنا، لكن على ما يبدو وصلوا متأخرين أو ربما استوعبوا أن الإنسان لا يملك سوى أن يحفر ليختبيء في حفرة وجوده. نخاف أن نكون ترسًا يدور . . نخاف ونهرب من أكثر أصدقائنا وضوحًا «العلم»، فالعلم لا يقول لنا إننا استثناء أو إننا نحمل جوهرًا ما أو أن ثمَّ عهد قديم مع الله له كل شيء لكن ماذا أريد أن أقول ..

لمَ لا نبدو ترسًا في الحقيقة؟ لمَ نبدو بصورة واضحة شيئًا فريدًا في هذا العالم؟

لمَ نحيا ونناضل حتى اللحظة الأخيرة ونحن نعلم جيدًا أننا سنموت وحدنا وسينهض في قلوب أحبائنا نسيان محض ..؟

لماذا نغني، نرقص، في أي سن أو موقف .. لماذا نمتلك بحقائبنا جميعًا كبسولات أمل لا يمل أن يدق أبوابنا كلما وقعنا في فخ الوجوديين؟

دعنا نضع تساؤلاً مباشرًا .. هل نحن ترس؟

بمعنى .. هل يتشابه البشر؟

هل عبقرية أينشتين مثيلة لعبقرية جوتة مثيلة لسقراط مثيلة للخوارزمي مثيلة لسيلين ديون مثيلة لغاندي ..؟

لمَ لا يوجد نمط واحد للعبقرية مادمنا ترسًا، ألا نجد غاندي محبًّا ونجد البابا شنودة محبًّا ونجد جلال الرومي محبًّا .. ونجد دوكنز محبًّا وهيتشنز محبًّا ؟

كلها قلوب رقيقة، كلها تنبض بالكيفية ذاتها ..

لمَ لم تكن ترسًا؟

فغاندي هندوسي وشنودة مسيحي والرومي مسلم وهيتشنز ملحد ...

على الواحد إذن أن يتوقف عن سطحيته وخوفه وهروبه، فنحن لسنا ترسًا في نضالنا ولسنا نقبل أن نعيش في نفق للنهاية ..إننا استملنا قلب بروميثيوس فمنحنا نارًا نضيء بها نفق قلوبنا ونمحو عثراتنا ثم إننا تلمسنا الله بكل جوارحنا .. منا مَن فتح عينيه على الله مباشرة، منا مَن لا يمل في كتابة رسائله وإلقائها بصندوق البريد..

عزيزي الله..

تحية طيبة ..أحب هذه الحياة الصعبة .. فأنت لم تمنحنا الحقيقة كاملةً حتى لا نعيش كأي شيء في ملكوتك حتى لا نعيش ترسًا..

محبتي

هنا يمكننا أن نلاحظ قلوبنا في وجْدها وعفويتها، إنها تدور كترس في فلك شيء ما، شيء نختاره ونشتهي لقاءنا به .. بهذا الوجْد أو الانوجاد تسطع حياتنا وتصير مبررة، إنها الإجابة الفريدة والخاصة جدًّا عند كل واحد فينا عن «المصير»

إذن لكل منا إجابته ووعيه بمعنى حقيقته ووجوده ..

عندأغلب الفلاسفة كان الحل هو المنهج أو المطلق أو الله .. وكانت الإمكانية قائمة في عالم حر من الزمان والمكان .. عالم أبدي؛ اللامكان أو اليوتوبيا.

وكان الله هو الفاعل الوحيد والمحرك الخفي .. العقل أو اللوجوس الكامنة وراء فكرة الحياة الكاملة.

شعر القدماء بجمال في هذه الكلمة «الله» .. أو انتماء لم يعرفوا كنهه ولم يحددوا منشأه.

الآن ما حكايتنا مع الله، لماذا نكتب عن الله، فهو الموضوع ـ إذا جاز التعبير ـ الوحيد المشترك بيننا وبين حفريات بابل والفراعنة والهيلينيين والرومان والأسيويين، وتاريخنا كله هو حالة من حالات التأييد أو الرفض لله .. بمعنى ما كان حضورًا دائمًا قويًّا ومصيريًّا.

في الماضي كان الله يتحرك نحونا هامسًا في أذن أنبيائه برؤيته لـ كيف يجب أن يكون عليه مستقبلنا وكيف على كل واحد منا أن يجلس مع ذاته وفي ذاته .. لم يجد الله حرجًا في هدم قوانينه كي نلتفت إليها وإلى ما ورائها.

لا يمكن أن ننسى أن الله أعلن عن نفسه في عبور موسى أو مائدة السيد، فالمعجزة هي هدم مادي واضح من أجل إحياء لما هو فوق المادة «الإنسان»، وتاريخ الأنبياء هو نوع من أنواع الإشراق، حضور المخيلة حين تنفتح على عوالم المُثُل والماوراء.

هذا التاريخ الآن مهمَل ولا نجده سوى في أيدي فريسيين محظوظين نوعًا ما.

فجأة صار عيبًا أن نفتش عن الله في ذرات الكون ودقائقه وكما يقول لنا هوكينج إنه تفهم جيدًا لما لجأ نيوتن لفكرة وجود الله .. الآن نحن لسنا في حاجة لمثل هذه الفرضية!

لكن ..

لمَ نشعر دومًا أننا ننتمي لله ..؟

الله لا المصير هو السؤال الأكثر جدية في تاريخ الفلسفة ..

ولأن الإنسان هو معنى الفلسفة، لأنه المادة الأولى للتساؤل أو الوجود الأعمق تنامى لدى الفلسفة ثنائية غريبة؛ ثنائية الله/الإنسان.

وإذا ما اعتبرنا الكتب المقدسة بصورة ما تحمل في طياتها موقف الله من الإنسان أو كيف يحكي لنا الله قصة الانسان، فالفلسفة هي هذه الحوارات التواقة التي تحكي أو تحاول أن تحكي لنا عن الله. والأمور متداخلة، ليست بمثل هذا الوضوح؛ فمثلاً نستطيع أن نقدم قراءة منافية لهذه القراءة.

فمايلز في سيرة الله يرى أن الكتاب المقدس هو بيوجرافيا الله أو يوميات الله، ولو أخذنا في الاعتبار أن الفلسفة ما بعد سقراط انشغلت بالإنسان ـــ فهو يظهر في كل تفلسف وهو باطن في كل تفسير فلسفي ـــ لانتهينا لقراءة مغايرة.

لكن تبقى ثنائية الله/الإنسان ماثلة وماثلة بوضوح حين نسأل مثلاً لماذا نعيش أو كيف علينا أن نعيش أو من أين بدأت الحكاية أو لمتى ستظل فصولنا الأولى مفقودة وبالطبع السؤال الأشهر : ما المصير؟

والدين أجاب على هذه التساؤلات، فالإنسان مفقود في الله، إنه روح الله أو الخليفة الذي يتمتع بكل مهارات حب الحياة.

لكن الإنسان التاريخي أي المدون لماضيه تسرب إليه شعور بالعبث تجاه وجوده أو فقدان الثقة في إمكانية الله في إدارة العالم.

وإن كان الله هو مدير العالم فهو من وجهة نظر جيلنا لا يجيد سوى إدارة الألم الذي تتشبع به حكايتنا، الألم الذي يتجسد في سخرية الموت وكأننا نكافح في الحياة من أجل موت نهائي..

هنا تذبذب كل شيء..موقف الإنسان من العالم ومن نفسه ومن المستقبل

وبالطبع رفضه لثنائية الله /الانسان.

إنه لم يتخلَّ عن الله وإنما رأى أن الله تخلَّى عنه.

وكان القرن العشرين ـ حين طُرد الله من ذهن فلاسفتنا ومفكرينا ـ القرن المعتم

الذي مجَّد فيه الإنسان عبثه، فكان العصر الاستعماري والحرب العالمية الأولى واحتلال فلسطين والحرب العالمية الثانية ..

فرغم معاناة العالم إلا أن هذا العبث تمخَّض عن بطل أو مخلِّص جديد «العلم». ومن حكاية العلم نعرف أنه كان أزليًّا، فميل الإنسان للمعرفة وللتساؤل وللاكتشاف وللتجربة كلها أمور يمكن فضحها في قصة آدم.إلا أن العلم كان هامشيًّا .. الآن يقف بمفرده ليلقي إلينا خطابًا بديلاً، والجميل أن الدين عاد من جديد.

فنجد بين أيدينا أقوى الكتابات النقدية أو الضربات العلمية التي في حقيقة الأمر لم تهدم بنية الدين وإنما أعادت صياغته لنجد من جديد ثنائية الله/تاريخ الله. وهي ثنائية بديلة مدهشة ولحد ما صحيحة، فنحن ـ وهذا بديهي ـ نجد أن تاريخ الله لا يليق بالله. وهي كلمات قديمة للنبي محمد حين تحدث القرآن عن يهوذا ثم يأتي اسبينوزا الذي فتح الباب لنقد كتابات العهد القديم.

الأجمل في هذه الثنائية الجديدة أنها اقترحت علينا فكرة جديدة .. فكرة إعادة اكتشاف الله بحياتنا..والعالم الآن ليس آسفًا في بحثه عن روحانية كونية وإنما نجد كتابات نبيلة عن التصوف وعن الله ونجد اهتمامًا بالبحث عن الله في تراجمنا للعالم والكونيات ..

والمسلمون يحتمون بالانهيارات التي تنبأ بها النبي محمد؛ فاليهودية انتهت لدولة استعمارية أو لنمط ينطوي على عدم الاعتراف بالإنسان كقيمة وبعودة الكذب حين تتحدث عن بطولات وطموحات نبيلة بدلاً من الحديث عن حروب ودمار وظلم، وهنا نحتاج لأن نستمع لكلمات راسل :

What are the facts. لكي نحدد هوية الديانة اليهودية، لكي نحدد هل نجحت اليهودية في إيجاد عالم أفضل أم لا في الواقع الذي فرضته.

والمسيحية أهدرت السيد المسيح بدون مقابل؛ فالعالم لم يعد أكثر أمنًا حسب نبوءة القديس أثناسيوس، وكلنا لاحظنا هذه الإزاحة التي وجدت الكنيسة نفسها مجبرة عليها .. الإزاحة لمجاورة اليهودية فانطوى الكتاب المقدس على أهم الكتابات اليهودية القديمة ويتضح ذلك واقعيًا بتأييد الكاثوليكية «كنيسة القديس بطرس» لقيام دولة إسرائيل.

العالم الآن منجذب لحضور الله لا لآليات حضور الله أو طقوس الاعتراف به وبهيمنته .. بمعنى صار ما يشغل عقولنا الله لا الدين، بدليل أننا نجد أن أقل الناس جدارة للحديث عن الله هم رجال الدين بل إن قراءاتهم صارت عدمية، إنها مجرد إعادة مملة للكتابات القديمة ونجد على الجانب الآخر أن العلميين والأكاديميين الدنيويين هم الأكثر إلهامًا لنا.

لكن كيف تبدو هذه العودة؟

الله مثلاً يطالبنا بالصلاة، والصلاة حالة من حالات الانصراف عن التشتت اليومي، العادات اليومية القاتلة التي نصاب بها بمجرد نزولنا الشارع .. إلى أي جهة يأخذنا، ماذا ينتظر الواحد منا عند خط الأفق؟

الصلاة رغبة نوعًا ما منا لاستيلاء الله على أرواحنا أو استعادة فرحة روحية لا نعرف كنهها، ظهور الله هنا يعني أننا قادرون على أن نأخذ خطوة بعيدًا عن

صخب العادات اليومية نحو صلاة تقنية نوعًا ما، صلاة تليق بحداثتنا الجميلة لكنها صلاة غير ربانية غير إجبارية طقوسية وإنما صلاة خلاَّقة، بغايات محددة، إعادة الله للعالم أو إعادة العالم لقلوبنا، العالم الفيثاغوري الحي .. أن نحس العالم لا أن نتعقله فقط.

وبسبب الأنبياء، المعجزات، والصلاة يمكننا أن نقول هذه العبارة: « كان الماضي كله لله»، كان الله يتحرك نحونا ويعلمنا كيف نكتشف هذه الحركة، كان يتواصل معنا ..

فالكتب التي لدينا هي كتابة الله بيده، فالله يحكي عن نفسه، الله يعلن عن خطته والله يتحدث، يسرد يومياته .

فالعالم القديم لم تشغله الكتابة عن الله وحسب وإنما الكتابة بواسطة الله. الكتابة العارفة فوق صفحات قلوبنا. التأمل في حكاية الله. الاستسلام له .. فكتابة الله أيًّا كان جموحها هي ترويض للروح التواقة لـ «اللانهائي»، إطعام للروح

إذن هناك حاجة استشعرها العالم القديم للكتابة عن الله، الحاجة إلى الانتماء على حد تعبير إريك فروم.

إنني حين أعايش هذه الحالة حين أحاول أن أنتمي إلى الله تجتاحني راحة عجيبة، إن مجرد التفتيش عن الله يعد خطة رائعة بالنسبة لي.

ولأن الله خفي فهو يفتح لنا الباب أمام فرضيات لا تنتهي تبدأ بهذا التساؤل : تُرى ما حجم المعرفة التي لا نلم بها؟ ما القانون الذي يستند إليه عالمنا .. ما الخطة؟

والحقيقة المستترة هنا ليست شبحًا وإنما دراما تتصاعد وتتعقد .. خيط جديد كل مرة يلهمنا فهم أعمق ورؤية متزنة .. فالله لم يكتفِ ببطولة الماضي ولا ينتظر بالمحطة الأخيرة .. إنه ينمو فينا ويزداد تألقًا كلما زادت قدرتنا على ترجمة نص الوجود ... والله يصف نفسه بالقيوم .. إنه خارج الزمن أو بكلمة أخرى مهيمن على مكمن ألمنا وذوبان ألوهياتنا الصغيرة . . الزمن.

في حين يتفق مع هذه الرؤية البابا شنودة وجلال الرومي يعترض هيتشنز بعاطفة مؤثرة .. فالله وباء ومأزق وفكرة فاسدة .. الله لم يكن جديرًا بكل هذا التصفيق أبدًا .. المفارقة هي أن الحرية الكامنة التي وهبنا الله إياها حتى في الاعتراض عليه وإهانته هي الطعنة المباشرة التي نملك أن نوجهها لفكرة «الترس».

فهل يمكن لنا فهم حركة التاريخ والأمل وفكرة النضال والتحدي ومشاعر الاختلاف دون أن نشير لروعة الله الذي سمح بهذه الحبكة الساحرة .. لا يرحب الله بأن نستسلم لما يسمى «العبث» أو اللا معقول .. فالواحد منا يستحق وجودًا اكثر صخبًا ونديَّة .. شيء داخلي حتى عند هيتشنز في حواره الأخير بعد إصابته بالسرطان يدفعه للتمادي .. للحياة للنهاية .. للحديث عن تفاصيلنا الصغيرة وأحلامنا وإنسانيتنا المخضبة بالتساؤل والتساؤل والتساؤل .. لسنا ترسًا وإنما خلقًا فريدًا لا يمل حريته ولا يخلص في كل تعنته وحرمانه إلا للنضال والتمرد .. إننا حسب جنوننا التاريخي مسكنون بالعطر وبُناة ظرفاء للأمكنة ..

الوصية الثالثة

أعطِ

ماذا تملك؟

هذه حقيقة .. أنت لا تملك كل شيء .. كما أن كل ما لديك لا يُعَد ملكًا خاصًّا تعالَ نتأمل فكرة الملكية ..

أهم ما في عالمنا، كل ما نحتاجه من أجل الحفاظ على حياتنا منزوع الملكية مشاع، والواحد منا يجد سلطته على أشياء هامشية فوق هذه الأرض .. الأبناء العمال، النقود، الرفاهية .. وكل ما تقدمه لنا هذه الأدوات مسكِّن .. جدار بيننا وبين الحقيقة، ثم ماذا توفر لنا هذه المكتسبات ؟

الحقيقة هي أن الرفاهية وكل صورها تستحوذ لا توفّر .. إنها تستهلك وحدات الحياة بصورة نهمة .. والحل هو أن نبقي على هامشية هذه الهوامش، ألا نستغرق وقتًا في آليات حمل صخرة الحياة .. لكن الممتع هو أن نكتشف ذلك قبل فوات الأوان ..

أننا لا نملك سوى ما لا نملك .. أقصد لا نملك سوى أحلامنا، مصطفى يسميها الدوافع .. أن يكون لديك دافع لاسترداد حياة مليئة بالرجاء ..

هذه حقيقة.. أننا هناك دومًا في المستقبل ندخر كل ما نملكه هناك لكن ما معنى أن كل ما لديك لا يُعَد ملكًا خاصًّا ؟

قلوبنا .. ما أروع أن تحب العالم.

دعنا من الكلمات الرقيقة أكثر من اللازم .. دعنا نقل : ما الجدوى من قلوب فارغة ؟ وما قيمة عالم يتيم تعيش فيه وحدك . . أحترم الوحدة لكن وحدة الوَجْد .. أي مواجهة أنفسنا والاعتراف أمامنا بكل ما يرسم ملامحنا .. وحدة الكشف عن غموضنا .. الوحدة التي تفتح بابًا للآخرين ليرونا كما نحن .. بعُرينا الكوني.

وإذا ما لم نتوقف عن هذا العطاء .. عطاء أنفسنا للآخرين فإننا عندها سنعيش حالة اندماج حقيقي بوجودنا، بل إن ملكيتنا لما هو أعمق من الأشياء تصير لا محدودة .. لكن لنتوقف عند كلمة «العطاء» ما ذروة العطاء؟ ..ماذا عن القمة التي يمكننا أن نصل إليها؟

القدرة على التضحية أو قابلية التضحية.

«التضحية» كلمة دينية، عديد من التعريفات الدينية يمكننا فهمها فيما عدا فكرة أن تضحي، أن تقدم ابنك وحيدك على مذبح ..

بعض الديانات قائمة على خدمة الرب أو العبودية المهذبة والطموحة، والسلوك التديني أو آداب العبودية التي يمارسها العابد أو الخادم هي رصيدة الذي يأمن به غضب الرب أو يضمن به امتيازات مابعد الحياة.. والحياة هنا حياة وظيفية لذلك نجد المسلم يقف طويلاً عند تلك الوظيفة ..

ما معنى وظيفتنا كمؤمنين أو خاضعين، ما معنى العبودية؟ حسب النص القرآني هو أن تكون كُلَّك لله وكأن ما يحركنا لا طريق ينتهي بوجود إله وإنما طريق

يصطحبك فيه الله فهو في كل لفتة وكل فكرة وكل عمل .. حتى في لحظة الجماع في لحظة الأكل .. في أي لحظة ضمن أدائنا الحياتي ..الله بجوارك لكن علينا أن نسأل هنا .. ما معنى التضحية أو كيف يمكنها أن تدخل في سياق حياة المسلم؟

حالة المجاورة أو العناية والتواجد الكلي لله عند المسلم تدفعه لحالة عشق وهناك كلمات صوفية فريدة تتناول هذا الانفعال المدهش، فالصوفيون أمثال ابن عربي هم مجرد لحظة مجاورة أو الوصول مع الله للذروة.

من هنا نفهم كلمة أن تضحي .. ومن الآن علينا أن نستبدل هذه الكلمة «أن تضحي» بـــ «أن تقدم»، فأنت تنقل روحك لله أو ما يمس روحك لله ..

وشخصية مثل إبراهيم حين قدَّم ابنه لم يكن مهووسًا بحبه وإنما أدرك أنه لا يملك شيء سوى مجاورة الله لذلك نجد القرآن يسمي ابراهيم «الخليل» أي هناك خلة أو مصاحبة.

إذن علينا أن نلتفت إلى أن العطاء ينطوي على تناقضٍ ما، ففي فكرة التضحية مثلاً كسب لا يمكن إغفاله .. ثمَّ دافع نعجز عن وصفه يتملك المرء ليبذل كل ما يملك أو ليتخلى عن أشياء لا تعوَّض .. والنبي إبراهيم مثال جيد .. هنا علينا أن نفهم فكرة أن تنقل روحك لله بكلمات أعمق .. إنك حينها تنتمي لله، هنا وكأن الواحد منا يتحرر من قيود العالم، قيود الثروة والأبناء والرفاهية .. عندها يدرك نرجس أن الوجه الذي يصافحه عبر ماء البحيرة لن يفارقه أبدًا .. إنه وجد نفسه أخيرًا .. وحسب المسيحية أنت الآن جدير بالدخول لملكوت المسيح لأنك تخليت عن قيودك .. الجميل أن هذا الصراع المعقد بين أن نخوض الحياة كمعركة

أخيرة أو أن نتخلى عن كل شيء هو صراع مزيف لأن إحساس الحاجة عندنا ينمحي ونصير عرايا من الجشع وحب الذات ونتحول لمانحين دائمين، نمول العالم بمحبتنا اللامحدودة وطموحاتنا السمائية.

هنا يكون التناقض أو المفارقة حين تتخلى عن كل شيء فتفاجأ بأن العالم يدين لك. ولو أننا استعدنا النبي إبراهيم للمرة الأخيرة هنا سنجد معنًى لكلمات القرآن حين تصف إبراهيم بكونه «أمة» .. فإبراهيم الذي يقدم إبنه الوحيد يصير «أمة» لكن أي عالم نعيش فيه الآن؟

إننا نحارب من أجل لا شيء . تخيل .. ما يدير عالمنا بئر بترول وأطنان الآليات الحربية ولافتة عريضة « فليخرج الله من حياتنا للأبد» .

من الصعب أن نقول إن الله كان هناك حين قاد الفراعنة حروبهم وأقاموا إمبراطوريتهم أو كان هناك مع الفرس ولا نجد الله عند الإسكندر ولا عند الرومان ولكن هناك كانت الحروب التي لا تنتهي .. ومع وَهْم «فليخرج الله من حياتنا للأبد « تكبدنا خسارتنا كاملة .. ولأول مرة تُنصَب الحياة مذبحًا ويُقاد البشر كذبيحة .. تأمَّل كيف نحفر تاريخنا أو كيف جعلنا منه مقبرة .

وكأن القاتل في هذا العالم يريد أن يكون قاتلاً للنهاية، وهنا يجب أن نفهم فكرة «الخد الأيسر» بصورة جديدة، إنك لن تتورط معه في طريق الكراهية، دعه يغضب للنهاية حاول فقط أن تسلط عليه ضوء قلبك فالله هنا لا يريد منك سوى أن تتحدث بلغتك أنت، لغتك الوحيدة، أن تقول له إن ثمَّ مكان له في قلبك

يقول النص القرآني: «فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم» .. ربما لا نملك أن نصف هذه الصداقة التي تتولد بعد العداء سوى بالحميمية لا لشيء سوى لأنك أمام صديق مختلف، صديق لا يملك غير خيار واحد أن يحبك، لقد جرَّب كراهيتك ولم يجد لها مذاقًا .. وبالتالي علينا أن نعيد صياغة «الذبيحة» في الكتابات القديمة .. الأمر لا يرتبط بأنف الله ورائحة الشواء وإنما برغبة الله في أن تتخلى عن شيء تملكه، تُخلي ذاتك من جسد طائر أو حمل ومن ثمَّ تُخلي نفسك من نفسك أو من شهوة التملك وحب الأنا .. إنك تطرح جسدك ذبيحًا وترحل .. ترحل لحياة بعيدة عن قيوده وطموحاته السخيفة ..

والقرآن يطلق على «الذبيحة» مفردة أعمق .. «قربان « وهي كلمة تعود لـ«ق ر ب» .. إنها توحي بالقرب.

فهذه الكلمات البسيطة التي جاءت بالكتب تشترك في فكرة واحدة شديدة الوضوح .. أن وراء البغض والكراهية يمكن لنا أن نجد للمحبة حيزًا، أن فكرة « الأخذ» تنطوي على «عطاء» .. فالله لا يريد ذبيحة، الله يريد أن نتحرر،

أيضًا أن في التخلي تكمن ذروة التملك وروعة الهيمنة .. أن نهيمن على أنفسنا هنا نصير أحرارًا بالضرورة وبلا خوف.

هنا يعلمنا الله لغته .. الـ«كن» الأولى .. النور الأول .. الحب الأول.

هنا يسمح لنا الله بأن ندون أنفسنا، أن نتذوق أنفسنا ..يعلمنا الحنين للبراءة القديمة والحب يعني أننا بتنا قادرين على نُجري حوارًا بين الممكن والمستحيل، إنه

معالجة للشر في العالم أو فينا.

والحب لا يقبل فكرة «الحيز» .. إنه أبهى مستعمر وأكثر المحتلين طموحًا.

الوصية الرابعة

لا تكره

يحتاج القاتل أن يتذكر دومًا كم يحمل من الخير أو كيف يمكنه أن يكون خيرًا خالقًا للحياة .. إنه يتذكر ذلك جيدًا، إلا أنه لا يصل لهناك حيث يختبر الواحد منا الله بتوبته أو يختار هذا الفصل الذي أضافه الرواقيون للفلسفة، أن يكونوا ذوي أخلاق فيتفلسف بحثًا عن القيمة .. قيمة أن نحيا.

وهو لا يصل لأنه يخلي قلبه لإيمان آخر بجوار إيمانه الخصب بملائكيته .. إنه الإيمان بالرفض .. أو ما أسميه بالتخلص من الحاجة للتخلص من صخرة الحياة وكأنه هنا يميل لأن يصير أكثر طُهرًا بأن يجرد الحياة من شوائب الآخرين.

هذه السطور الأخيرة لم تُكتب الآن وإنما هي كل ماضينا .. كل مشاريعنا التدميرية، وفاؤنا الأبدي لكراهيتنا .. كل حروبنا النبيلة ونضالنا الرائع من أجل عالم مجرد من شوائب الآخرين.

يحتاج القاتل لأن يحب أحيانًا ضحيته .. تحدث قناص مسن عن هذه الوظيفة الدقيقة .. القتل من المرة الأولى، تحدث عن تلك النظرة العميقة التي يودعها كل مرة في قلب ضحيته .. إنه يلمس دفئًا غريبًا في كل مرة، فالضحية يستحيل لصديق أو يصير الرجلان صاحبَي ماضٍ مشترك ..

اختار الرجل كلمة «عائلة»، وأنا أفهم معنى هذه الكلمة؛ إنها مرحلة عميقة وسرية

بعد الحب .. حلم أن يصير العالم عائلة.

تخيل .. تحدث القناص عن ضحيته قائلاً: تشعر أنكما عائلة واحدة.

لا يعيش في العالم قبيح وجميل، لم يعد على الأقل بيننا هابيل، لقد تم إعدامه بضربة واحدة من القدر.

وهذه نقطة تحدث عنها إريك فروم تحت ما سمَّاه «متلازمة الانحلال» .. لا ذئاب وخراف وإنما ميول.

كل واحد فينا يمكن له أن يعيش قاتلاً أو ضحية، ذئب أو خروف، وما الظروف أو القدر أو التاريخ سوى حائط نصقله ونبنيه ونؤسس له بأيدينا .. إنها خدعة الحقيقة، الحقيقة حين نصر أن نطالعها عبر أميال أو جُدُر أو ونحن محصنون بالعمى.

إنها فرادة التجريد أو ملكة التجريد التي يجريها القاتل كي يرى في مرآة روحه صورته كضحية، والعلمانية خير دليل على هذه الفرضية، فالإطار العلماني أو البنية العلمانية كشفت لنا عن حقيقتنا الهزيلة حين اتخذت من الإنسان صخرة الكنيسة أو حجر الزاوية.

إنها فتحت الستار واكتفت بالواحد منا فوق خشبة المسرح وحيدًا فماذا حدث؟

لم نكتف بنظرة العبث التي كتب عنها سارتر، لم نجد جحيمًا في انتظارنا وإنما صنعنا جحيمًا بأيدينا .. إننا خضنا أسوأ حروبنا وتقلدنا كل أوسمة الكراهية في

فترة وجيزة حين قالت لنا العلمانية : أنت بطرس، أنت من سيُبنى عليه التاريخ أنت المقدس الوحيد.

أنظر للعالم الذي نعيشه؛ هو الأكثر فقرًا وجوعًا وبؤسًا وبغضًا وكراهية.

إننا الحيوان الوحيد الذي يصر بكل براءة وصدق أن يكذب للنهاية، فالعالم القديم احتاج وقتًا طويلاً ومعقدًا ليتفهم أو يتقبَّل تشريح أجساد الموتى..

الآن تحوَّل الكثير منا لفئران تجارب بأيدينا وتحول العالم لتلك الحالة المكثفة التي تستولي على القناص حين يتهيَّأ لاقتناص أخيه.. فكلنا صار يعيش كل حياته هذه الحالة، حالة الترقب لدفن الآخرين .. إنني أجد الكراهية في أضيق زوايا خبرتي الحياتية في أضيق علاقاتي وفي أكثرها اتساعًا .. بيننا كبشر.

إننا في عالم تجد فيه مَن يصفق للقاتل، حقيقةً نعيش في جو تصفيق أو رغبة مهووسة في التصفيق للقتلة، ولأننا كذبة فإننا نسميها أحيانًا بأسماء أخرى .. أسماء بريئة فنمتدح نابليون ونصف أداءه بمعاركة كلاعب شطرنج ماهر!

ونسمي القاتل الذي يعيش فينا أحيانًا بالمناضل أو نسمي الحروب بالأمجاد فنقدس فينا الموت ونضع أجمل ما نملك «الزهور» على مقابر قاتلينا وقتلانا وكأننا نحاول أن نرى الموت مُزهرًا وهذه الجرعة المأسوية أو هذا الفعل المُر، التفت إليه دنقل في إحدى قصائده حين كان يمارس الموت في مدونته الحياتية ..

يقول دنقل عن زهور زائريه بالمشفى :

كل باقة .. بين إغماءةٍ وإفاقة

تتنفس مثلي ـ بالكاد ـ ثانية .. ثانية

وعلى صدرها حملت ـ راضية

اسم قاتلها في بطاقة !

إنها المطالعة، التجرد البسيط لأن نقول للقاتل: أنت يا سيدي قاتل .. وأنت يا سيدي أناني وأنت نصَّاب وأنت قبيح .. لا لأنك وُلدت قاتلاً أو أنانيًّا أو ..أو ..

وإنما لأنك اخترت أن تحزم حقائبك وأن تسهر في مراقبة روحك لاقتناصها.

ربما لا تفسير فلسفي وراء رغبة الإنسان في تنقية موته ومنحه لون من ألوان الحياة، لكن هناك تفسير نفسي نوعًا ما .. فالإنسان كائن جمالي يحاول جادًّا أن يحرِّف ما يراه من عقم وجمود إلى ثراء ووجود مفعم بالحياة .. حين نراقب مثلاً رائعة لدستوفسكي «الجريمة والعقاب» نجده يلتمس مبررًا للجريمة أو قل حاجة للجريمة، إنه ينقلنا من قبح الفعل إلى ما وراء الفعل .. هنا لا نجد غضاضة حين نقرأ عن قاتل وقد أسندت إليه البطولة .. لا نجد قسوة في رواية «اللص والكلاب» .. والموت شيء قبيح أراد الإنسان أن يفهمه وربما يدافع عنه فتمثَّل دور القاتل ببراعة وخاض تاريخه كله كقاتل محترف ومحبًا نبيلاً للكراهية.

إذن لو قلنا كيف يمكن بالفعل أن تتحول لذئب لا تملك غير أن تربح قتل أخيك؟

تكون الإجابة .. الكراهية.

الكراهية وحدها كتبت تاريخنا أو أنتجته . وفي نهاية القرن الثامن عشر حاول الإنسان أن يقرأ نفسه بصوت جهور ولأول مرة يسرد أخطاءه بعناية وذكاء وكأنه افتُتن بهذه المواجهة وللمفارقة أن حروب البشر الأخيرة وما بعد ثورات التحرر كانت أكثر قبحًا وأشرس أداءً إلا أنه لم يمل المجابهة. والآن ما الترياق الذي يجتث منا هذا القبح؟

الحب.

لا يسعنا مع الحياة سوى أن نستسلم للحظة تحريضية وُجدنا من أجلها.. «الحب».

والحب قليل ومفقود إلا أننا مهما كانت حياتنا بلهاء وقصيرة حتمًا سنتعثر بطيفه. وحياة الواحد حلم عنيد لأن يمج مشكلة الحب؛ فالإنسان نوعًا ما حيوان يكتب الشعر ويبكي لفراق ويموت من أجل قضية، إنه محب بالفطرة أو قناص مرَّن روحه للوقوف منتصبًا دفاعًا عن الحب.

وفي كلمات الكتاب الأولى أحب الله حين تخلَّى عن الظلمة واستند للنور.

وفي حكايات أجدادنا خذلنا التاريخ وخذلتنا طموحاتنا إلا أنهم تركوا لنا كلمات

قليلة .. أينما وُجدت فأحبب .. اِشتهِ حلاوة وطنك ورفاقك وإلهك من كل قلبك .. وفي مرثية أندلسية لخوان رامون خمينيث تطعمنا الكلمات محبة الرجل لبلاتيرو .. حماره المتخيل.

وكلنا مثلاً مجنون ليلى حتى لو خانت ليلى أو تمردت «كعادتهن».

وكلنا جرَّب هذا النشاط المحموم للقلب حين يقرر فجأة أن ينصت لامرأة فتبهت ملامحنا ويغيب الوجود وتتساقط أمام ليلى كأوراق خريف ونغدو أقرب للثالة لا ندري هل تتسع الدنيا أم تنزوي ولا نفهم هذا الخطف الوجودي والوجد والغياب والسُكر سوى أننا بكل ذرة فينا نشتهي هذه الاستباحة الماردة للُب القلب والعقل والروح.

والله هو المحبوب الذي لا يُضاهى ولا يُمَل .

وفي الفلسفة يبدو الحب كما لو كان المشكلة الوحيدة والحل الأوحد، فالمحبة صميم سؤالنا عن المصير وخلاصة إجابتنا عنه، فنحن حين نسأل عن الحبكة الدرامية من وراء وجودنا لا يشغلنا من وراء هذا السؤال سوى محبتنا لكل دور لعبناه وكل دور علينا أن نلعبه.

تأمل ولعنا باستعادة الذكريات ورغبتنا الحالمة في ألا نستنفد الحياة ثم كيف نحتمل ذروة آلامنا سوى بوازع الحب وبأي شيء نستطيع تضميد قلوبنا دون الحب.

وبمعنى ما الحب؛ هو لقاء عفوي بالله أو ميلاد عفوي لحرية لا محدودة لرغباتنا.

هو التزام ألهمتنا به بشريتنا العميقة، التزام غير مكتوب تجاه قلوبنا بأن تتهيَّأ؛ لا لأن تنبض لنا وحدنا، لا من أجلنا وحدنا لكن من أجل الآخرين.

ويعود جذر الكلمة إلى (ح.ب) ونبحث عنها في حَبَا أو حَبْ والأولى بمعنى أعطى أي امتلك المقدرة على الفعل والتأثير والثانية تمنحنا أثرًا لوقع الحياة في نشأتها، الحياة كضمير مشتعل كامن فينا مفعم بالعطاء.

الوصية الخامسة

كن مناضلاً

يسأل النفسيون عادة مرضاهم عن المزاج .. فالسعادة عند النفسيين هي حالة من حالات اعتدال المزاج العام للمرء.

والسؤال هنا غير بعيد عن السؤال التلقليدي عند الأطباء «مِمَّ تشكو؟» فالمرض النفسي ببساطة هو فقدان المرء للسعادة الوجودية لكن الأشد إيلامًا هو أن غياب المرء لا غياب السعادة هو ما ينطوي عليه السؤال ويفتش عنه إذ إننا كثيرًا ما نمضي في الوجود بجدية وقابلية للاندماج المجتمعي لكن بلا سعادة.

مهمة الطبيب هنا لا أن يجد تشخيصًا للمرض وإنما أن يجد «المرء» ذاته .. ورغم غرابة «المزاج» إلا أنه يختزل لنا بساطة البشر وعفوية الألم وجرأته لذلك لا يسمي النفسيون الاكتئاب أو الوسواس القهري بـ»مرض» الاكتئاب أو الوسواس القهري .. لا نجد كلمة «مرض» في كتب النفسيين وإنما «خلل» وكأن الروح قطعة فنية علينا إعادة ترتيبها في انفلات الوعي بلحظة ما أو أمام موقف ما.

في كلمات قليلة لا يبدأ النفسيون تحليلاتهم للذهن بالسؤال «مِمَّ تشكو».. فأحيانًا لا يكون الخلل النفسي مبعثًا لشكاية أو معاناة وإنما حضور بديل، دفن شخصية وإحياء ذات بديلة، فالسؤال «ما حال مزاجك؟» ربما يكون نقيض لسؤال

الشكوى، إنه أقرب لـ «أين تجد نفسك؟» دعنا نعد لكلمة «السعادة» ... ترى ما هي السعادة التي تجعل مزاج المرء في أفضل حالاته؟

عند البعض يبدو سؤالاً سخيفًا .. فنحن نعيش في مستنقع سارتر حيث ملهاتنا الوجودية والتي لم تمنحنا غير الكآبة، فالحياة مغموسة بالموت .. هل هناك سعادة في الموت ؟ ..

مصطفى يقول بسهولة إن الإنسان نعش يسير على قدمين.

السعادة استثناء أو هذا المخلوق الخرافي القابع وراء خط الأفق .. التنانين.

الأنثروبيولوجيون يخبروننا بأمر مدهش؛ فحسب ما لدينا من فتات الآلهة القديمة ــ بمعنى أننا إذا ما تتبعنا الأداء النفساني للآلهة القديمة ــ سنجد شريحة عريضة من المرضى فكل ماقاموا به تصويب، ندم، بعضهم غادر وترك مدونته بلا توصيات بمعنى لا واحد فيهم كان سعيدًا ..

الآن ما الكتابات المقدسة في عيون حضارتنا ؟

إنشاء عقيم ، كاتب مغمور مريض .. مايلز يصف كاتب إشعياء ـ أهم كُتَّاب العهد القديم ـ بأنه مريض نفساني .. لم يكونوا سعداء.

الحقيقة أننا نستطيع أن نقول أكثر، فمن السهل أن تقف مكانك وتقول إننا جميعًا لا شيء وأن الوجود غير مفهوم وأن الله مُبهَم .. مرتبك، أو إنه مريض أو ميت..

فأنت حر للنهاية .. والقرآن يسمي النهاية باللقاء .. «فمُلاقيه» والهاء هنا تعلن

عن الله .. فحرف واحد يكفي لكي تنهض فينا المخيلة بكل ما لديها لترسم هذا اللقاء الآن عليك أن تطرح هذا السؤال:

هل كل ما لديك كان ترفًا أو عبثًا؟

هل الحياة حقًّا لا تستحق النضال؟

أحيانًا يجد المرء نفسه في حالة من حالات العمى .. بصورة ما يعيش عالمنا الآن حالة من حالات العمى .. فنحن لا نرى الله ولا نرى أن قيمة الحب أو التضحية أو الابتكار تحمل في طياتها أنفاس الله ولا نرى أنفسنا أيضًا؛ فمثلاً يُمكن لأحد الأصوليين أن يحكي لنا عن دموية الإسكندر، يمكن له أن يحكي عن الأكثر جنونًا وشغفًا بمجد مفتَعَل .. فحروب الإسكندر هي أكثر مذابح التاريخ تنوعًا، ثم يضع عبارة لئيمة بعض الشيء ومعبِّرة .. انظروا ! إنه تربية فيلسوف!

إننا تاريخيًّا لم نقف فقط ضد الله أو الحضارة أو الفلسفة وإنما وقفنا ضد أنفسنا.. يسميها إريك فروم «حب الموت» Necrophilia، نستطيع كل هذا الموت لكن هل حقًّا هذا الوجود لعبة روليت نخسر فيها دومًا .. هل الثورات الأخلاقية والمعرفية تقول لنا إننا جميعًا لا شيء؟

إننا جميعًا نخسر؟

إن كل ما قام به البني آدم لم يزحزح صخرة الشاب سيزيف بعيدًا .. ؟!

حسنًا.. ما السعادة؟

السعادة لا أن نقدِم، وإنما أيضًا أن نعمل على أن نقدم الرخاء الروحي للآخرين والآخر ليس شخص من نفس النوع .. فلسنا قطيعًا .. وإنما الآخر الوجودي.

فحين رسم دالي لوحاته أقحم على عالمنا لحظة سعيدة وحين دوَّن الأدباء والشعراء كلماتنا، حين دوّنوا جميعًا كلماتنا كان الأمر مريحًا ..وحين اتجه ابن عربي صوب هذا المكان البيولوجي الذي نسميه «قلوبنا»، ليس ابن عربي وحسب بوذا المسيح، النبي محمد .. حين غسلوا جميعًا قلوبنا أظن أنها كانت لحظة سعيدة.. مرة أخرى المسألة مسألة قلب.

ربما السعادة هنا تنطوي على تناقضٍ ما أو ربما تبقى مفهومًا هلاميًا لكن يمكننا أن نستقرأ لوحة مثبتة على ناصية الطريق .. الأمر يحتاج لنضال ، لتحدٍ ..

التحدي .. هذه الكلمة التي أحضرها تويني في حكايته للتاريخ، الحاجة للنضال في وجه نضال مزيف، بمعنى أننا نستطيع أن ننفي عن الإنسان كونه ترس أو قذر أو شرير أو عدو إلا أننا لا نملك أن ننفي عنه «غضبه الحضاري»أو بكلمات أدق «آليات الحروب والهيمنة».

في هذا العام كان عليَّ أسبوعيًا أن أمر على قلعة صلاح الدين مرتين وكان تساؤلي بديهيًا : كيف تم بناء مثل هذا البناء الضخم؟

والسؤال الأعمق كيف تم بناء التاريخ؟

إن أعمق كلمة تصف لنا مأساة البشر هي «السُخْرة» أو «النضال المزيف»وحين قامت الثورة الفرنسية حاولت أن تعالج هذا المرض «العبودية» وفشلت ولم

تقدم لنا سوى شعارها فقط، يمكننا تتبع بدايات التاريخ الأمريكي، يمكننا أيضًا أن ندعي أن آليات السُخْرة أو الهيمنة لنكتشف أننا جميعًا نوعًا ما مناضلون لكن يبقى مفهوما النضال والنضال المزيف يفسران لنا حكايتنا ومازالت آثارهما تدب بجذورها بقلب كوكبنا وأُعد تويني مسيحًا جديدًا حين فجَّر ينبوع «التحدي» الذي يسوّغ لنا تفسيرًا لـــ «لمَ نحن صامدون للآن؟»

والنبي محمد سمَّاه الجهاد لكن النبي محمد ميت بعالمنا الآن، فالجهاد الذي أحيا به جزيرة العرب، الذي حوَّل به قومًا بلهاء للمهمين لأجيال عديدة فيما بعد، الجهاد الذي أحيا حضارات العالم الشرقي القديم هو الآن جهاد مسموم لا يقدم غير الموت السريع والغضب الممنطق .. بمعنى تحولت فكرة «النضال» لمشكلة «النضال المزيف» .. السؤال الذي يهمني الآن:

هل نحن نتبنى فكرة التحدي، النضال ، هل أنا كفرد في مجتمع سيء عديم القيمة أؤمن بالتحدي ؟

لا.

نحن مستعمَرون .. لا ننصت لطموحاتنا القلبية بشيء من الاهتمام ولا نتبنى فكرة «إحياء» أو «استعادة» أنفسنا كلما غُلِّقت في وجوهنا الدنيا .. لا ليأس ولا لعجز و إنما لعمى ..

بمعنى..

أننا في حاجة وحاجة جادة لاكتشاف طموحاتنا من جديد، في حاجة لأن نقرأ

جيدًا عناوين بطاقات الدعوة .. في حاجة لأن نتفهم لا أن المستقبل لا ينتظر وإنما على حد قول أينشتين يأتي سريعًا .. لكنه بلا خطورة مبهمة، نحن خطورته الوحيدة، نحن من له القدرة على أن يحدث فارقًا.

لكن ما معنى «عمى»؟

إن أفضل مثال هو رواية العمى لساراماجو .. عمى البصيرة أو خداع عقلي ممنطق ننجرف إليه ظانين أننا نهيمن على أحلامنا وطموحاتنا ونحن في حقيقة الأمر ننسحب .. ننسحب لجحورنا القديمة.

أُنظر كيف يعيش الواحد فينا مغتربًا ، قلقًا ، مشتتًا ، عقيمًا ..

حاول مرة أن تتابع مبيعات شركات الأدوية المهدئة.

الإنسان منا يرغب في انسحابه ويروج لأكاذيب هيمنته على نفسه .. إنه العمى الأبيض.

السعادة إذن تتشبث بمعنى التحدي وتتدثر به ولا يجب أبدًا أن تأتي نجاحاتنا كضربات شعواء في جدار القدر .. فالأمر يفوق العمى الأبيض .. إننا في محنة حقيقية حين نكتشف أن السعادة تنطوي بشيء من الموضوعية على الألم والجهاد لكن علينا أن ندرك أننا لا نعبر وحدنا وأن القارب يحتاج لأكثر من يد للتجديف نحو حياة سعيدة.

لكن نضالنا يجب أن ينطوي على التسامح ففي النهاية أنت مَن ستقرر أين تضع

قطعتك ومتى سيموت الملك.

ففي النهاية أنت مَن ستقرر أين تضع قطعتك ومتى سيموت الملك . لا لأنك الفائز دائمًا لكن لأن ثمة حقيقة تقول إننا مَن نصنع أعداءنا.

حقيقة أخرى تقول إننا أسوأ عدو يمكننا مواجهته .. الإسلام يسميه الجهاد الأكبر، والجهاد في الإسلام يضع احتمال الفناء كمكوِّن أساسي وضروري لإيجاد واقع أفضل ..

أي أننا أحيانًا نسحق أنفسنا أو علينا أن نسحق أنفسنا حين يكون علينا اكتشاف أنفسنا ..

لكن كيف يمكننا أن نتسامح؟

هناك كلمات للإمام عليٍّ يمكننا أن نستفيد منها، فالإمام يضع لاصقة قوية عند خانة العدو .. (مؤقت).

هذا عدو .. هذا كيان (مؤقت).

بسهولة نستطيع أن نختبر مصادر الإمام، فالنص القرآني يقول : اِدفع بالتي هي أحسن

كلمة «اِدفع» تبدو مشحونة بالقوة لكن عمق النص القرآني حين يستخدم لفظة «أحسن» .. هذه الهيئة التي تعني «أحسن ما لديك» تمنحنا فهمًا آخر غير القوة .. «الإرادة».

أن تلتفت بجدية لهذه اللاصقة «مؤقت»وأنت مملوء بالحب أو بإرادة الحب لا الكراهية .

كم واحد منا يضع هذه اللاصقة في خانة العدو؟

العداء مرحلة من مراحل التفاعل لا ما يقع بَعد السهم .. لا رواسب، لا كائنات فضائية ترغب بكل ما تحمل من معرفة أن تحطم أحلامنا .. العداء مجرد غضب مفهوم وواقعي لكن كلنا يعرف مهما كان الغضب فهو زوبعة.

لكن هذا تفسير كلاسيكي لإتيكيت مصافحة العدو ..

أقصد ..

هل يكفي أن تترك مكانًا خاليًا بالصورة لهذا الذي يأتي متأخرًا بالضرورة؟

لا.

لا يجب أن يتسع قارب النجاة لنا فقط ولا أن نطعن الآخرين بحقائقهم ونمضي كما لا يكفي أن نتهم أنفسنا بـــ»الصَفْح».

في المسيحية مثلاً لا توجد مقاعد انتظار .. حَزِّم حقائبك واتجه لهناك، اطرق باب عدوك .. هناك .. هناك فقط يكمن الفوز الحقيقي، الفوز بقلبك ..فأنا أصر أن المسألة مسألة قلب، فحبوا أعداءكم بالنص الإنجيلي عميقة، إنها تجبرنا على أن نتخلَّى عن الرياضيات البدائية .. لا خانات .. فالعداء هنا أحد أبجديات الحب ..

وحين نسأل أنفسنا : لأي شيء أراد المسيح أن يلفت انتباهنا ؟

تكون الإجابة هي أننا نتكلم لغة واحدة، أننا لا نملك غير أن نحب ونحب ونحب ولا نهاية.

والمحبة ليست رفاهية لكنها غريبة وصعبة وقديمًا نحت المسيحيون كنائسهم في الجبال وأمضوا حيواتهم في الصحراء، وكأن تعاليم المحبة تجعل منك غريبًا غير مألوف لعالم غارق في الكراهية والحيوانية لكن المحبة كما تصفها المسيحية قوية كالموت بمعنى أنها نافذة وهذا التشبيه ينطوي على أنها مصيرية فما أجمل أن تتجه قلوبنا وأفكارنا عن العالم والآخرين نحو الحب كمصير مثلما هو الموت مصيرنا جميعًا.

وعبر النبي محمد قديمًا عن أداء النضال حين أخبرنا أن ما من نبي إلا وكان راعي أغنام .. هذه الوظيفة مثلما تنطوي على الغربة ـ أن قدر الأنبياء هو منح قلوبهم ربما لما لا ينطق ولا يستشعر فكرة الحياة ـ توحي بمدى حاجة النبي لأن تهدأ روحه في دعوته حتى لو وجد في البشر صورة من صور القطيع طفولي الرؤية والطموح لا ينشد غير الكلأ .. فكرة الرعاية هنا هي عين المحبة، الرعاية للعالم التي حسب الإسلام كُلِّفنا بها حتى لو كان هذا العالم لا يملك قدرة الإصغاء لتعاليمك أو محبتك.

ونحن لن نجد في طريق المحبة غير المرارة والعذاب لكنها وحدها قادرة على إحياء فكرة النضال كل لحظة فينا.

بمعنى أن الوطن، العائلة، الدين، التاريخ، الفلسفة والآخر بُن قهوتنا، إنتماؤنا العفوي والأبدي للحكاية، حكاية الحياة التي ليست حياة دونهم.

الحياة التي لا نملك غير أن نصنعها بكل صخبها، بكل خداعها، بكل آلامها ونرحل.

لا أفهم معنى رحيلنا غير أنه إقالة مهذبة، إننا نُطرد من أنفسنا، من حكايتنا، من كل ما لدينا، ذكرياتنا الصغيرة، آثارنا، أولئك الذين حركوا قلوبنا ..إننا نرحل أو نهاجر أو يتم إقصاؤنا ولا قيمة هنا لدمعة أو كلمة أخيرة أو .. أو ..

ماذا نجد من وراء كفاحنا من أجل فكرة أو من جراء قيمة مريرة مثل الحب سوى نحت قلوبنا في صحراء الوحدة والرهبنة. لكن من ينكر هذه الفرحة التي تملأ تاريخنا بظهور أولئك الذين تبنوا الحب والنضال وماذا نجني من كراهية غبية أو فساد تعصبنا حتى تجاه أرواحنا وما قيمة المخادعة وتزييف أرواحنا؟

لاشيء.

لا يوجد أي سبب حقيقي يدفعنا للخداع أو يجعل عقولنا تنأى عن المحبة، وما دام الأمر هكذا فالخداع أو الكراهية نوع من أنواع الموت .. لا داعي إذن أن نموت مبكرًا ، لا داعي لأن نحفر لأنفسنا، فما أقصى أن توافق على ضحكة مزيفة وكلمات مزيفة.

تتودد لمن لا يستحق وتحلل وتكذب، إنك حينها وكأنك تراقب بعين ميتة وجدانك القتيل فلا الحب عندك حب ولا الحياة حياة.

الوصية السادسة

لا تتوقف

ملايين السنين والعالم يستيقظ كل صباح يتجه لأن يكرر برنامجه اليومي.

ملايين السنين ومازالت نفس الأخطاء تُرتكب ومازال يبدو عالمنا عبثيًا.

دعني أقل بكلمات قليلة : ما الجدوى من أن نعيش في عالم عبثي؟

تحدث بوبر عن ما سماه (المنهج) .. لا يلتفت إلى مصدر المعرفة وإنما كيف سنبعثر هذه الأفكار من جديد، وهذه الفكرة الجميلة عند بوبر تمنحنا آلية الإجابة على عبثية العالم ..

فحسب بوبر لا يهم إن كانت مصدر أفكارنا أسطورة أو نظرية علمية .. المهم سلوكنا نحن تجاه الأفكار .. هل سنضع أفكارنا كاملة أمام العقل أم لا؟

إذن ما الجدوى من عبثية العالم ؟

لا يهمنا هنا إن كان العالم عبثيًا أم لا .. المهم سلوكنا نحن؛ فالعبثية التي يتجه إليها العالم كل صباح تترك لنا توصية واحدة .. إنه في حاجة ماسَّة للإنسان.

وبالتالي حين نفكر مثلاً في الشاب سيزيف وهو يضع صخرته بعناية ويصعد بإخلاص وفي الخطوة الأخيرة ينهار كل شيء فيعود هابطًا ليضع صخرته فوق ظهره من جديد ويصعد ..

حين نفكر في سيزيف لا يصح أن نستسلم لتحليل كامو لفهم معاناتنا بمعنى أنه من السطحية أن نشير للإنسان في هذا العالم على أنه كائن يدير ألمه بظهر محنِي وروح كسيرة وإنما علينا أن نفكر لمَ كان على سيزيف أن يكرر فعلته سوى لأنه مغيَّب مسلوب الإرادة.

ما يلفت وما عليه أن يلفت انتباهنا ليس العبث هنا وإنما غياب الإرادة ..

والإرادة هي التي تدفع الواحد منا لأن يتفهم أن خللاً ما في العالم علينا تصويبه.

إن مهمة الإنسان اكتشاف إرادته ومن ثمَّ ضبط العالم..

وضبط العالم لا يحتاج إلهًا خاصة أننا لو ادعينا ذلك فعلينا أن نتذكر أنه لم تنجح محاولاتنا التتويجية لأن نصير آلهة وإنما يحتاج وعيًا مباشرًا ، تساؤلاً ثوريًّا:

ما قيمة أن تترك صخرة فوق القمة أيها الشاب سيزيف..

هل أنت واعٍ بما تقوم به ..

هل تريد ما تقوم به؟

ببساطة على سيزيف أن يترك الصخرة ويصعد بمفرده .. سيصل وسيجلس وربما سيستوطن قمته.

وبالتالي ليست العقبة في عبثية العالم وإنما في الوعي بالدور المنوط لنا القيام به، أيضًا بإرادة القيام به.

فأنا أرى أنه منطقي جدًّا، يومًا ما نرى سيزيف جالسًا بمفرده فوق القمة، فالشاب الذي نازع الموت البقاء يستحق..

أيضًا علينا ألا نتوقع أن وصولنا لقمة وجودنا يعني بالضرورة توقف العالم عن عبثيته ..

بمعنى.. مجرد وجودنا في هذا العالم يعني أن علينا أن نمارس الحياة بكل فاعلياتها .. أن نختبر الإخفاق والتعالي، الفشل والنجاح لكن ثمَّ أمر واحد لا ينبغي أن نعانيه .. التوقف.

فالتوقف يعني لي أن العصفور الذي لا يملك غير حريته وشدوه وُضع في قفص بالبلكون .. إننا نحنِط لحظة ما وعندها لا يبدو ولا يمكن أن يبدو لنا شدو العصفور سوى ضوضاء وعبث.

إنه نوع من الموت العميق، يسميه المسيحيون موتًا روحيًّا، وبالتالي علينا أن نفهم جيدًا أن الموت لا ينتظر هناك أو هو دومًا في المواجهة وإنما علينا أن نفطن لمعايشة الموت، أن نفتش عن الموت الذي يسكن قلوبنا أو بين كل نَفَس ونَفَس..

ومرة أخرى سيزيف .. دعنا نسأل ببراءة: ما الصخرة فعلاً؟

أليست معاناة سيزيف المباشرة والعبء الأكبر عنده، جريمته .. ماذا لو كانت موته؟

فالإنسان حقيقةً لا يعاني غير موته ولا يقلقه غير موته ..

تخيل أن طموح سيزيف موته .. أليست خيانة ساذجة نوعًا ما..؟

إن التوقف عن الإيمان بأن عالمنا ما هو إلا ما نقوم به وما نريد أن نقوم به يَعني أننا نعيش موتنا .. وأنه لملايين السنين القادمة لن يُولد لنا غير ملايين من الشباب حاملي الصخور.

ضع بروجرامًا لكيف يجب أن يكون العالم، اِجعل روحك أداة لتغيير عالمنا..

بداية ما العالم الذي نعيش فيه؟

بصورة ما العالم الذي وُصف بقرية صغيرة أصبح أكثر تعقيدًا، يصفه البعض بأنه مختل، عالم ليس أمامه سوى العودة للمستقبل، فاليقين وحده هناك، دومًا، في الخطوة القادمة.

ويعاني مؤرخونا من كثرة النهايات، ومن دراما الإنسان العفوية.

بصورة ما صار العالم محتملاً، لا تملك أن تثق فيه ولا أن تتنبأ بطموحاتك أو ميولك.

هذا العالم الذي يلفه الغموض البريء والغياب المحض للحقيقة لا يقودنا سوى للتساؤل: ما العمل؟

حين نقرأ هوبز بَوم وهو يصف القرن العشرين الوجيز، وهو يتحدث عن موت الإنسان أو عن ما سمَّاه بعصر «التطرفات» نشعر أننا بلغة المزارعين ثمار عطنة.

ثمرة الإنسان ما بين ١٩١٤: ١٩٩١ انتهت صلاحيتها، والله حسب ظني لا يمكن أن يسمح بهذا القدر من التخريب، فالإبادة أو الانهدام الذي يقوم به الله في الكون هو انهدام خلاَّق، أو عادةً ما نجد جماليات في موت الكون، موت النجوم، موتنا نحن.

فالشيخوخة التي تُصيب الكون تفتح لنا آفاقًا تجاه كيف بدأت الحكاية وكيف يمكنها أن تبدأ كل مرة. فالموت الذي أقحمه الله في رواية الخلق وفينا هو أهم دوافعنا وأكثرها فاعلية لبناء حياة خالدة .

هذه الهيمنة البنائية سواء في ذهن الله أو فينا تختلف كليًا عما وقع عن عَمْد ما بين ١٩١٤: ١٩٩١، فهناك الحرب العالمية الأولى وهناك هتلر وهناك الحرب العالمية الثانية وهناك انهيار الاتحاد السوفيتي ..احتلال فلسطين.

لقد سقط كل شيء .. ولم تكن الجريمة هذه المرة بيد الله كي ندَّعي من جديد أن ثمة خرافة تحبط لنا كل أحلامنا لأن نصير آلهة صغيرة.

فالله أُخرج عن عَمْد. ماذا فعلنا ؟ لقد سقط كل شيء.

لكن هل علينا أن نقف ضد أنفسنا؟

أظن لا، فليس علينا أن ندفع تهمة الميل إلى تدمير كل شيء باتجاهنا، فكما نقرأ بسهولة عن شروره وحرصه على تخريب حياته، نقرأ أيضًا عن صورة ألوهية الإنسان وفرادته أو ميوله العميقة للكمال.

وليست الشجاعة في التخلي عن أنفسنا .. ربما إذن الدرس الوحيد الذي يمكننا أن نستخلصه من أسطورة الإغريقي سيزيف هو «لا تتوقف».

في كل خطوة في لعنة سيزيف كان يتقدم ويعلو، كان يزداد قربًا من غاية توطَّنت قلبه واستولت على ذهنه.

إننا إذن لسنا في حاجة للطموح وفقط، وإنما في حاجة للاتوقف، لمتابعة الطموح بخطوات جادة احترافية؛ خطوات تجعل احتمالات موتنا مأساة ومغادرتنا فراغ كوني ..

أيضًا علينا أن نضع بجانب سيزيف صندوق باندورا .. بمعنى أن أذهاننا لا يمكن إلا أن تضع الأمل كعلة مباشرة لكل ما نصنع.

كتب الإنسان عن جودو الذي لا يأتي ويمكن فهم الإسقاط بصورة أعمق إذا أضفنا أنه أيضًا عَبَدَ جود « God» الذي لا يأتي ورغم ذلك لم يتوقف عن فضح المأساة وتراجيديا وجوديتنا، وما توقف عن التماس الله والارتماء بمحبة لزاوية الروح حيث الواحد منا مهيَّأ للكمال ومنزه عن دنس الواقع وفي رؤية فلسفية نوعًا ما يمكننا أن ندعي أن الحروب هي أفضل طريقة للإنسان كي يموت .. فرغبة الإنسان في الإبداع لا تتوقف حتى في كيف يجعل الموت لائقًا وكيف يجعل منه مجدًا..

لا يمكن أن نقف ضدنا حتى لو كنا نحن أكبر كذبة في حكاية التاريخ .. حتى لو أن قديسينا وأنبياءنا وثائرينا جاءوا هباءً، والعالم كما هو، كما كان دومًا نفقًا وحسرة لا يمكن لأننا مازلنا نحيا، ومازلنا ننصت لإجابة لا تأتي أبدًا عن ما الخير وما الفضيلة وماالمصير.

الوصية السابعة

نعم

ما أقدم مشكلة واجهت البشر؟

الفشل.

ولماذا؟

الجهل.

وكيف تغلب عليها؟

باكتشاف ملكاته .

إذن يبقى السؤال البسيط .. ماذا نملك؟

الحياة هي أبسط أداة في أيدينا وأتعس لحظات المرء هي تلك التي يشعر فيها بالفقد وخسارة حياته وقديمًا عرَّف الدينيون السعادة بأنها حالة من حالات الرضى وتأييد الماضي الفردي للواحد، لكن لا يفقه كثيرون منا أن الطريق بلا نهاية وإن كانت نهاياتنا حتمية وأننا مجرد حالة عميقة من الحب أو البغض للوجود .. والأثر هو بقايا أحلامنا الدرامية وسعادتنا الأشبه بالفرض الرياضي أو الثابت الفيزيائي .. إنها جزء من بنية لحظاتنا القصيرة في هذا العالم ..

الحياة السعيدة إذن درجة من درجات الانوجاد واعتلاء الذات لسُدة غاياتها .. غاياتها الملقاة بساحة المستقبل أو المغمورة في غلالة الغيب .. وكأن الحياة عميقة

الحضور هي تلك التي تنتمي للمتخيل والمرتقَب، أو بكلمات أبسط هي تلك الحالة الأقرب للاحتمال لا الثبوتية المتيقنة ..

بمعنى أن قوة الحياة هي في الالتزام بالمستقبل وغرس أبدي لمفهوم الأمل والتفاؤل مهما كان الواقع مؤسفًا.

وفي كلمات النبي «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» دلالة على الشك الأليم في الواقع أو مهارة الواقع لأن يمتص كل إمكانياتنا وغاياتنا .. ولم تكن فكرة الآخرة فكرة عقيمة إذ تدفع المرء للانتظار لحياة يراها حقيقية وأكثر رفاهية وإنما كانت دلالة على أن الواحد منا يستحق أكثر من حياة أو أنه مهيَّأ لحياة جديرة به .. الأمر إذن له علاقة بملكات البشر الذين ينزفون وجودهم لا لشيء سوى لإحباط أَلَمَّ بهم كون الحياة تهزأ أكثر ما نحتمل .. تهزأ بطفولتنا ورغباتنا الدفينة بسلام جبري ورفاهية لا محدودة.

وفي حكايات الأنبياء صورة من صور الترقب أو نقد الواقع والرغبة المتجذرة في نفوسهم في الاحتماء بالمستقبل والتأثير على الواقع، وربما بلغ الأمر مع بعضهم إلى نفي الواقع وحدث الأمر نفسه في الفلسفة حين حاول سقراط أن يهزأ بأسطورة الواقع وضحالة الإيمان بأفكار لم تخضع للنقد ثم تطورت إلى ثورة على الواقع ومحاولة بتره مع أفلاطون حين بدأ الحديث عن فكرة «اليوتوبيا» ..

لكن ما الواقع؟

مثل كل يوم .. كل يوم.

لا نمل أن نسأل أسئلتنا البسيطة .. لمَ يبدو القمر جميلاً، لمَ نعيش لحظات بعينها كندب واضحة بذاكرتنا .. لمَ نحب أحيانًا فتيات تشبه الكائنات الفضائية؟

لمَ تبدو أفراحنا دومًا شاحبة، لمَ يموت كل شيء؟ كل شيء يستند برفق ويتداعى ويستكين بمصب اللا شيء.

يرى اليائس أن الله لا يقدم لنا دي إن أيه كاملاً لدرامتنا الخاصة هنا حين نسأل عن طبوغرافيا مشاعرنا .

أعرف يا صديقي أن كل شيء خاضع للتطور عدا أحلامنا تتوقف عند عتبات الأبد والسمائية، رغبتنا السرية في ألوهيات صغيرة، لا جديد في أحلامنا ومن السهل أن ننجرف لاستقراء خبيث؛ أن الله لم يقدِّم لنا الكثير أو ربما نعاني عمًى فسيولوجيًّا حين نسأل : ما الحياة، ما الجمال، ما الألم، ما الذي يمكننا أن نتوقعه من الله، ما وراء أحلامنا .. لكن .. الأسئلة القصيرة تلك والجنون الغير مهذَّب تجاه الله هذا والمحرج لفطرتنا نوعًا ما يشبه الأعشاب الطبية؛ مليئة بالسموم لكنها الترياق الأوحد والفريد كي لا يمر كل يوم مثل كل يوم، وكي ننظر طويلاً للقمر فلا نرى إلا الله في غيابات الكمال والروعة وكي لا نتوقف عن استدعاء خبراتنا وآلامنا وكي نحب كائنات فضائية كل يوم وكي نفرح فرحتنا الوجودية القصيرة وكي نموت ونحن صلبو الرقبة كرجال دولة أو قادة .. نموت في سلام بعيدين عن التاريخ ومندسين فيه بآثار «خير الناس أنفعهم للناس» والمسلم من سلم «الناس»

من لسانه ويده، وكي لا نملك من الدنيا غير كلماتنا النابهة عن الخير أو ولعنا في البحث عنه .. ولا يبقى من ميراثنا سوى الشوق إلى الله بطفولتنا كاملة حتى لو كنا ملحدين حيث أوج الطفولة وسذاجتها .. لا يبقى فينا من حلم الواقع غير الوجوه العابرة وبقية الغموض الذي تعمده الله فينا .. هذا ما يحدث فارقًا .. الانتباه للذات والرأفة بها والحنو على الواقع لا الهيمنة عليه أو الوقوع في أسره.

يضيع الإنسان منا إذا ما وجد في الحياة كلها غاية تستبد به وحده، إنه عندها أقرب لعبودية لا سبيل للخلاص منها إذ إن الغايات عليها أن تنسدل إذا ما ابتعثت فينا شرورنا من أنانية، توهُّم وحضور زائف للذات بكل ميولها العدائية تجاه العالم.

ويضيع المرء إذا مااستأنس وعيه، إذا ما اطمأنَّ لعقيدته في رؤية نفقه الوجودي

عليه ألا يستريح لنزاهته أو مثاليته، ألا يغْتَر بما اصطفاه لنفسه، بل عليه وعليه وحده في كل لحظة أن يستنبت وشيجة أكثر براءة يَعهد بها العالم ووجوده.

فكيف يروق لنا أن نعيش سعداء في هذا العالم ما لم تنطوِ سعادتنا على دموع ومعاناة وفَقْد من أجل الآخرين، بل الواحد منا ليضيّع كل لحظة في حياة تنسكب في أنانيته أو حبه المفرط لذاته وماذا يجني عندها إلا شروره.

كيف يروق لنا أن نُنهي أطروحة الفضيلة ما لم نُثر حضورها في قلوبنا كسؤال لا ينضب وحيرة أنَّى لها أن تنزوي؟!

على المرء إذن أن يرأف بطفولته الطويلة في وجود كهل، وعليه أن يتيسر في بنيته الدوجمائية، وعليه ألا يتوقف أبدًا في انتخابه لكل ما يجعل من روحه مطهرًا لروحه.

محبتي

س.إ.سالم

مطالعة لـ

القرآن

الكتاب المقدس

مشكلة الفلسفة/ زكريا إبراهيم

مشكلة الحرية/ زكريا إبراهيم

جوهر الإنسان/ إريك فروم

جوهر الوجود/ إريك فروم

سيرة الله/ مايلز

وهم الإله/ ريتشارد دوكنز

مقومات التصور القرآني/ سيد قطب

لصوص الله/ عبدالرازق الجبران

انقلاب المعبد «الحل الوجودي للدين»/ عبدالرازق الجبران

ملاك الحقيقة المطلقة/ مراد وهبة

عصر الثورة/ إريك هوبزبوم

عصر التطرفات/ إريك هوبزبوم

قايين/ ساراماجو

العمى/ ساراماجو

اغتيال/ اميل تومبي

الجريمة والعقاب/ ديستوفسكي

أنا وحماري/ خوان رامون خمينيث

في انتظار جودو/ بيكت

الأعمال الكاملة/ أمل دنقل

المحتوى

الإهداء	٣
مقدمة	١٧
الوصية الأولى	٣١
أنت حر	٣١
الوصية الثانية	٣٩
لا تخف	٣٩
الوصية الثالثة	٥١
أعطِ	٥١
الوصية الرابعة	٥٩
لا تكره	٥٩
الوصية الخامسة	٦٩
كن مناضلاً	٦٩
لا تتوقف	٨١
الوصية السابعة	٨٩
نعم	٨٩
مطالعة لـ	٩٧

رقم الايداع / ١٨٦٨ / ٢٠١٤

الترقيم الدولى / ا - ٥١ - ٥٣١١ - ٩٧٧ - ٩٧٨

01017180938-01202034326 - 01224272327